روايات تيوليب للجيب

(عدد خاص)

عزيزة مونرو

رانيا حجاج

[روايات تيوليب] - عدد خاص.
(عزيزة مونرو) رانيا علي حجاج.
الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٥
تصميم الغلاف : م. دعاء عبد اللطيف
تنسيق وتدقيق لغوي : إسلام علي
facebook.com/ISCOTO

المدير العام : رباب الشهاوي
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **٢٠١٤/٢٦٢٠٤**

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing



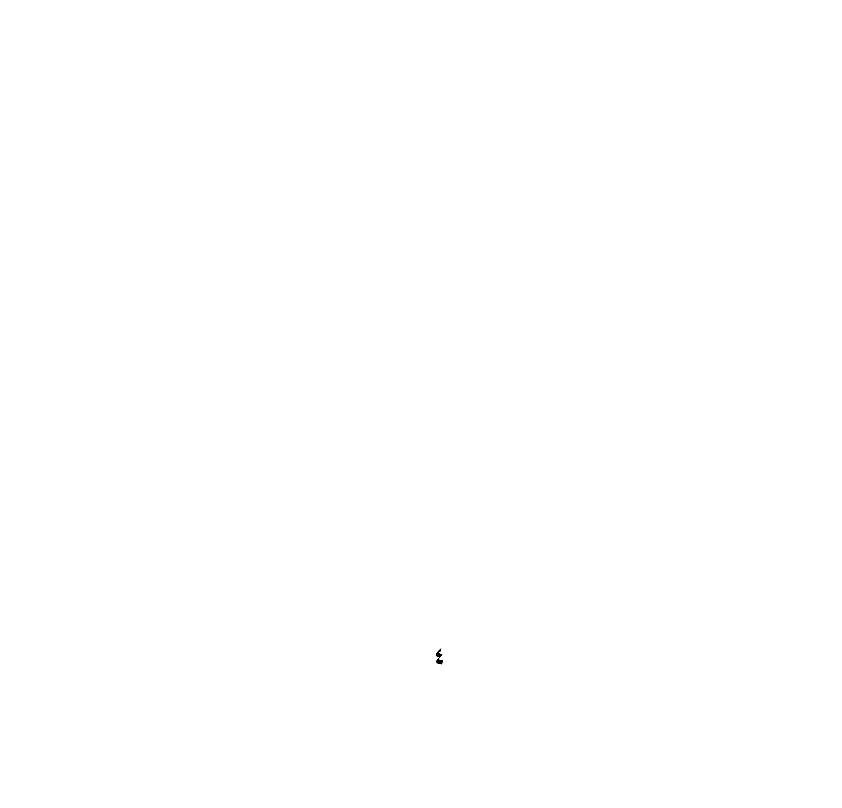


روايات تيوليب للجيب

(عدد خاص)

عزيزة مونرو

رانيا حجاج



♥ إهداء ♥

إلى أصحاب القلوب البيضاء

والأرواح الساكنة

عائلة الأستاذ/ عبدالوهاب السيد

مقدمة:

الرواية دي أول خليط فصحى وعامية أكتبه.

بعتبرها رواية خفيفة. أتمنى تعجبكم.

(١)

-"قتلتيه ليه؟"

هكذا بادرها ضابط الشرطة بسؤاله، عاقدًا كفيه على مكتبه، وبعينيه نظرات جافة لم تفهم معناها؛ أهي احتقار أم اشمئزاز أم كلاهما معًا.

نظرت له بهدوء..

- "أترغب بسماع القصة من البداية أم النهاية؟"

- "هو أنا لسة هسمع قصص!؟ من النهاية طبعًا!"

- "إذاً.. لم أقتله"

نظر لها غاضبًا وهو يتأفف.

- "اتكلمي عدل زينا. فكك من العربي الفصيح بتاعك، واعترفي!"

- "لا أستطيع"

- "هو إيه دا اللي لا أستطيع!؟"

- "لا أستطيع التحدث بالعامية".

- "ليه ان شاء الله!؟ لتكونيش أجنبية وأنا مش عارف!"

- "إليك جزء من الحكاية. لقد درستُ اللغة العربية على يد أحد المدرسين بالمدرسة الابتدائية التي كنت أدرس فيها.. كان رجلاً طيبًا وحنونًا.. لم يضرب يومًا طالبًا أو يسبه.. كان يعطينا من وقته بعد الحصص مجانًا؛ فقط لأنه يحب التحدث بالعربية ويحب تعليمها.. وكنتُ أنا أفضل طالبة لديه؛ فلقد كنت أتحدث العربية بطلاقة ولم أكن أخلطها بالعامية. لذا قبل أن يموت كان يوصيني أن أتمسك بلغتي الأم، وألا أندرج تحت اللغة الهابطة التي يسميها العامية، والتي أخذت من روح الفصحى كثيرًا حتى قتلتها".

- "أنا شكلي واقع في فيلم عربي ولا إيه!؟"

- "نفس هذه الكلمات كنت أسمعها من زوجي الأول، الذي كان يضايقه تحدثي بها. هل تصدق أنه لم يكن يفهمني كثيرًا، لذا اكتفى بأخذ حقوقه الزوجية مني وكفى".

- "طب اتفضلي جاوبي على السؤال.. قتلتيه ليه؟؟"

- "سأجيب إن أجبتني أنت.. هل ترغب بسماع القصة من البداية أم من النهاية؟"

الضابط وقد نفذ صبره:

- "الخصي وهاتي من النهاية".

- "إذًا.. لم أقتله".

- "اللهم طوِّلك يا روح! كل الدلائل بتدل عليكي.. يعني القضية لابساكي لابساكي على فكرة".

- "أعلم ذلك".

- "طب ما تعترفي وتخلصينا".

- "إن رغبتَ أن اعترف لك، فعليك أن تسمع قصتي من البداية".

انتفض الضابط من كرسيه، وتوجه إليها يجذبها من شعرها:

- "إنتي هتتشرطي عليا يا بنت الكـــ.."

نظرت له بهدوء، مبتسمة:

- "أنا لا أضع شروطًاً.. ولكن لكي تحكم بالعدل يجب أن تسمع قصتي من البداية".

كاد أن يبطش بها، لولا أن جاء صوت صديقه الضابط (عصام) مقاطعًا:

-"ما تسمع قصتها يا حضرة الضابط.. أنا قولتلك إيه قبل كده؟ إدي كل واحد حقه يتكلم، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته".

عاد للجلوس على كرسيه، وأخذ يحدق بها وهو يسحب سيجارة من علبه سجائره، وضعها في فمه وأشعلها بقداحته الفضية، التي أهدتها له زوجته بعيد زواجهما، بعد أن نقشت عليها اسمها واسم ابنتهما لتذكره دائمًا بأن التدخين قد يسرقه منهما يومًا ما. لم تفقد يومًا الأمل، في جعله يتوقف عن التدخين.

- "ممم.. اتفضلي احكي.. بس اختصري".

- "قصتي لا تُختَصر؛ إنها قصة حياة يا سيدي".

وضع كفه على جبهته يفركها، ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، وأشار إليها ملوحًا بأن تبدأ الحكي. عدلت الإيشارب على رأسها، ثم استرسلت وعلى وجهها نصف ابتسامة:

- "تبدأ قصتي من ذلك الزقاق الصغير، الممتد من حيث يختلط الأحياء والأموات معًا، من حيث هم متساوون في شقائهم. كنت البنت الثانية لرجل له من الأبناء خمسة: ثلاثة صبية وفتاتين. كنا بالنسبة لوالدي أهم شيء، حتى أهم من الصبية. ليس حبًا فينا، ولكن طمعًا فيما سنجلبه له يومًا ما أن نكبر. اعتدنا النوم بجانب القبور؛ فمنزلنا ما كان غير غرفة في أحد المدافن. كان إخوتي

الصبية يأخذون من القبور أسرَّة، يفرشون فوقها ألحفتهم وينامون بعمق. إلا أنا لم أكن أنام إلا في النهار. كنت أقضي الليل كله مستيقظة. كنت جبانة كما سموني، ولكن كيف لي أن أنام وأنا أسمع صوتهم يهمسون بالحديث بينهم. كُلٌ يحكي قصته للآخر، ويبكي أبناءه الذين هجروا زيارته، أو أهله الذين نسوه".

تمتم بصوتٍ خافت:

- "دي مجنونة بقى!"

ابتسمت مره أخرى، ولكن هذه المرة غطت شفتيها طبقة رقيقة من الخُبث:

"لا.. لا يمكن الجزم بذلك. رغم أني شككت بنفسي كثيرًا، ولكن لم يكن لدي حيلة غير تقبُّل نفسي كما أنا.. مجنونة. تعبت كثيرًا من الحياة هناك. كان الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر بالحياة هي المدرسة، وخاصة دروس اللغة العربية. كنت أعشق تلك الحصص بجنون. ربما كان السر في ذلك هو الأستاذ (فهيم) مدرس اللغة العربية. مسكين مات أبناؤه وزوجته في حريق حدث بمنزلهم وهو بالمدرسة. منذ ذلك اليوم وهو حزين، كلما رآنا ضمنا بين ذراعيه ونادانا بـ (أبنائي).

كان يرى فينا أبناءه الذين فقدهم. كنا نرى فيه تعويضًا عن آبائنا الذين فقدناهم، أو هكذا كنت أنظر له على الأقل. حتى توفي أبي الروحي الأستاذ (فهيم)، منذ ذلك اليوم لم أعد أطيق المدرسة. نعم.. تركتها وبقيت بالمنزل، ولكي لا أنسى ما علمني إياه، كنت أقرأ كتب إخوتي الآخرين".

الضابط وقد أصابه الملل قليلاً:

- "ممكن تُخُشِّي في الموضوع، وتنطي من ذكريات الطفولة دي؟؟"

- "كيف لي أن أحذفها وهي ما كوَّنت ما أنا عليه الآن!؟ هي جزءٌ مني لا يتجزأ عما أنا عليه. ألم يقل المثل 'من شب على شيء شاب عليه'؟"

- "إنتي قصدك إن طفولتك هي اللي حوِّلتك لقاتلة؟؟"

- "كل شيء في هذه الحياة مرتبط بشيء آخر؛ فالماضي مرتبط بالحاضر، والحاضر مرتبط بالمستقبل. ولو أنك وضعت نصب عينيك تلك المرحلة المهمة من مراحل حياة الإنسان -الطفولة- ستجد أنها أكبر مؤثر على حياته بالكامل".

****

- "يا ولد يا (علاء).. تعالى يلا عشان نعمل تمارين الضغط بتاعت كل يوم".

تنظر له زوجته بضيق:

- "هو كل يوم تمارين ضغط!؟ الولد لسه صغير! دا بدل ما تلعب معاه!؟ تخليه يعمل تمارين ضغط!؟"

-"اسكتي إنتي يا (فوقية)! وإنتي فاهمة حاجة!؟ تمارين الضغط دي هي اللي هتعمل منه راجل زي أبوه".

- "ويعني مفيش حاجة تانية هتخليه راجل غير كده!؟"

- "(فوقية).. إنتي هتقعدي ترغي معايا عالصبح!؟ فين الفطار؟؟ متنسيش اللبن بالبيض عشان أنا و(علاء) نشربه.. دا مقوي مهم".

لوحت له بيدها وهي تخاطبه:

-"انت عارف إن (علاء) مش بيحب اللبن بالبيض!"

نظر إليها وقد قطب حاجبيه، حتى التصقا ببعضيهما كسحابة سوداء:

-"ومن إمتى فيه حاجة اسمها بيحب ومبيحبش!؟ إحنا نقولُّه (اشرب) يشرب.. (كُل) ياكل.. فاهمة؟ دلعك دا هو اللي هيوديه في داهية.. اتفضلي قومي جهزي الفطار".

ظهر (علاء) من خلف ستارة الطرقة، وهو يفرك عينيه بعد أن أيقظه صوت والده، ليجد والده وقد أشار بإصبعه نحو الحمام. تنهد (علاء) بعمق، واتجه للحمام مترنحًا عابسًا وجهه. دقائق حتى ناداه والده من خلف باب الحمام:

-"انت هتنام عندك ولا إيه!؟"

(علاء) بتملل:

-"خارج أهو".

لم يرغب (علاء) بالخروج من الحمام؛ فهو يعرف ما ينتظره من أحداث يومية متعبة. حتى عطلة نهاية الأسبوع لم تسلم من تمارين والده، وعصيره المقوي. كم تمنى (علاء) لو أخذه والده مرة إلى حديقة الحيوانات ليرى الزرافة. كان يحب حيوان الزرافة جدًا لألوانها الجميلة، ولأنها كما حكت ميس (عفت) حيوان حكيم، كان يقدم دائمًا النصح للأسد عندما كان يحكم بين الحيوانات. حتى أنه طلب مرة من والدته وهم بالمول، أن تشتري له حيوان زراف من محل الألعاب. وتحققت أمنيته بامتلاك حيوان الزراف، إلا أنه لم يهنأ بذلك؛ فلقد عاتب أبوه والدته على فعلتها، وأخذ منه حيوان الزراف

ورماه بالقمامة، وعاقب (علاء) بخمسين تمرين ضغط. كان يرى دائمًا أن تلك الألعاب تفسد الطفل وتجعله لينًا. ولأن (علاء) كان عنيدًا وشجاعًا، فلقد انتظر حتى ناموا جميعًا، وتوجه إلى صندوق القمامة، وأخذ زرافته وأسرع يخبئها تحت سريره؛ هذا هو المكان الوحيد الذي لم يكن والده ليكتشفه؛ فهو يكره النزول تحت الأسرِّة ولا يعلم أحد السبب.

يأتيه صوت والده قاطعًا شروده:

- "(علاء).. ما تخرج يا ابني يلا!"

علاء في استسلام:

-"حاضر".

ضغط على زر مقعد الحمام، الذي ابتلع ما بداخله كالطوفان سريعًا. ثم اتجه نحو الحوض لغسل يديه ووجهه وفرش أسنانه؛ فالنظافة الشخصية كانت من أهم المعايير التي يعاقب عليها العميد (يحيى).. والده.

لم يكن (علاء) في ذلك الوقت غير طفل لم يتجاوز العشر سنوات من عمره، ولكن مع كل ما كان والده يفعله به، كان يبدو كمن جاوز الأربعين من العمر؛ دائمًا صامت لا يتحدث مع زملائه ولا يلعب معهم. حتى أن

مُدرسة الصف دعت والدته مرة، وسألتها عن السبب الذي قد يؤدي بطفل كـ(علاء) لهذا السلوك. لم تكن والدته على دراية بالكلمات التي يمكن أن تفسر سلوكه طبيعيًا، فلم تجد بُدًا من أن تروي لها ما يفعله والده معه، وكيف أنه يعامله كالكبار في كل شيء. لم تستغرب المُدرسة ما سمعته؛ فكثير من الآباء من نوع العميد، ممن اعتادوا على الجدية والرسمية في حياتهم، يعاملون أبناءهم بذات الطريقة؛ على افتراض أنهم سيصبحون مثلهم. يعدّونهم ليصبحوا نسخة طبق الأصل منهم. ما كان من المعلمة إلا أن طلبت من والدته أن تضمه لحضنها، وأن تستمع إليه؛ حتى لا يؤدي سلوكه يومًا ما إلى أن يصبح عنيفاً عصبي المزاج. كان الخجل يحاصر الأم وهي تبتسم لها وتهز رأسها بالموافقة، وهي بداخلها تعلم أن والده قد بنى سورًا بينها وبين (علاء)، ومنعها من تجاوزه؛ حتى لا يصبح ضعيفًا، أو على حد قوله (ابن أمه).

خرج (علاء) من الحمام يمشي بخطوات ثقيلة، وكأن قدميه قد رُبطتا بقطعتي إسمنت. كانت عيناه ملتصقتين

بالأرض، وكأنهما يمسحانها. جاء صوت والده كالرعد في أذنه:

-"ارفع راسك، وبُصّلي".

رفع (علاء) رأسه بسرعة، ونظر إلى والده الذي كان يحمل كأس عصير القوة كما كان يسميه. ابتسم له نصف ابتسامة، وتناول الكوب من يده. ثم نظر لوالده وهو يشرب كأسه دفعةً واحدة، وهو يشير له أن يقلده. أغلق (علاء) أنفه بإصبعيه، وأغلق عينه، وشرب المخفوق بسرعة. لم يحب يومًا طعمه، ولكن والده كان يرغمه على الكثير من الأشياء التي لم يكن يحبها، فلم تأتِ على هذه.

عاد للنظر أرضًا، وأخذ يحرك رجله بدلال.

- "بابا.."

- "عايز إيه؟"

- "ممكن نروح الملاهي النهاردة؟"

التفت سريعًا إلى والدته، التي أسقطت أطباق الفطور من يديها، وهي تراوح النظر بينه وبين والده. صمت والده قليلاً، في الوقت الذي أسرعت فيه والدته إليه، تمسك به لتعيده خلفها، وهي تمد يدها نحو أبيه

تستسمحه ألا يضربه. جذب الأب كرسي السفرة، وجلس بهدوء، ثم أشار له أن يأتيه. خاف (علاء) من أن تتم معاقبته، مع ازدياد توسلات والدته لوالده بأن يتركه.

- "عيل وغلط.. معلش سيبه.. والنبي ما تضربه".

جاء رد والده مفاجئًا لكليهما:

- "أنا مش هضربه ولا حاجة.. أنا هكلمه بس. تعالى يا (علاء) لبابا. انت خايف مني؟"

- "لا يا بابا.. أنا مش خايف".

- "خلاص تعالى"

- "مش هتضربني؟"

- "لأ يا (علاء) مش هضربك".

ابتعدت والدته من أمامه، وطلبت منه أن يذهب لوالده فقد أعطاه الأمان. اقترب (علاء) من والده ببطء، وكأنه يتحين الفرصة التي قد يهرب فيها إن نقض والده عهده. ولكن والده لم يتحرك، بل بقى بكرسيه كما هو. تسلل شعور بالراحة لقلب (علاء). فزاد في اقترابه من والده، حتى وصل إلى ركبتي والده.

- "قولي يا (علاء).. مين اللي قالك على موضوع الملاهي دا؟؟ ماما؟؟"

- "لأ.. ماما ماقالتش حاجة.. بس العيال اللي معايا في المدرسة قالولي إن باباهم وداهم هناك".

- "بص يا (علاء).. إحنا مش زي العيال أصحابك الخنافيس دول. انت ابن العميد (يحيى).. يعني راجل. أنا مبربيش خنافس. انت فاهم؟ دي آخر مرة أسمعك بتطلب مني حاجة مخنفسة زي دي.. فاهم؟؟"

هز (علاء) رأسه بالموافقة، ولكن هذا ما كان ليقتنع أباه، الذي امسكه من أذنه:

-"مش سامع بتقول إيه".

تألم (علاء)، وأمسك بيد والده المنقضة على أذنه، وهو يصرخ:

-"فاهم.. فاهم".

أفلت الأب يده، وهو يدفع ابنه أمامه:

-"شاطر.. اعملّي يلا عشرين تمرين ضغط".

(٢)

- "إحنا شكلنا هنبات النهاردة هنا! ما تلخصي يا بت ولا تحبي أشوف شغلي معاكي؟؟"

هكذا بادرها الضابط، وهو يخبط بيده على سطح المكتب بقوة.

- "لو لم يكن لديك الوقت فيمكنك الانتظار للغد.. ثم نكمل".

انتفض مره أخرى من مكانه، وتوجه إليها. ولكن هذه المرة قام بصفعها بقوة حتى نزفت شفتاها.

- "عشان تعرفي تتعاملي معايا إزاي".

- "إيه يا حضرة الضابط!؟ أنا مش قولتلك إن أحنا مش بنمد إيدنا على حريم!؟ هو أنا معلّمتكش حاجة ولا إيه!؟ مش رجولة دي".

نظر إليه، ثم أدار رأسه متأففًا، ثم صرخ على العسكري (حسنين) ليأخذها إلى غرفه الحجز حتى الغد.

عاد إلى مقعده، وأسند ظهره على كرسيه، وهو يمسح بكفيه وجهه في ضيق.

- "يلا يا (محمد) لم ورقك. هنكمِّل بكرة الوقت اتأخر النهاردة".

هز (محمد) الكاتب رأسه موافقًا لرأيه، وأخذ يلم أوراقه. جذب الضابط جاكت بذلته الرمادية، وخرج من القسم بين تحيات العساكر له. توجه نحو سيارته الفولفو السوداء، أدار محركها وانطلق نحو المنزل. كان قد أنهى في تلك المسافة إلى المنزل علبة سجائره بالكامل، لذا توقف عند السوبر ماركت الواقع على أول الشارع، واشترى خرطوشة كاملة، وخبأها في صندوق السيارة الخلفي بعد أن أخذ منها علبة واحدة، ثم تقدم بسيارته بضع خطوات حتى وصل إلى جراچ السيارات بأسفل العمارة، فقام بركن سيارته. وصعد بالأسانسير إلى حيث يقطن. أخرج مفاتيحه وأدار مفتاح الباب، الذي ما إن فُتِح حتى وجد ابنته الصغيرة تنتظره، وقد فتحت ذراعيها تركض نحوه، وتناديه: -"بابي.. بابي".

استوقفها بيده التي سكنت أول رأسها، وقال لها بغضب:

-"أنا مش قلتلك متقوليش (بابي) تاني.. قولي (بابا).. مش عايز دلع ومياصة".

نظرت له الفتاة بوجه عبوس ببراءة، فأدار وجهه في تأفف وهو يلوح لها:

-"يبيه! هنتقمص بقى!؟ روحي يلا لماما".

ركضت الفتاة نحو أمها وهي تناديها: -"مامي.. مامي".

أسرعت الأم نحوها بهلع. وقد خافت أن يكون قد حدث لها مكروه. دفنت الفتاة رأسها في صدر والدتها، وقالت لها وهي تنشج:

-"بابا زعَّقلي.. مش عايزني أقوله (يا بابي).. بيقول إنها مياصة ودلع".

ربتت الأم على ظهر ابنتها، وهي تحاول تهدئتها:

-"معلش يا حبيبتي.. يمكن هو بيحب يسمعها منك (بابا).. فقوليله الكلمة اللي هو بيحبها".

فهمست لها الفتاة بهدوء:

-"ده حتى محضنِّيش يا مامي".

- "معلش يا حبيبتي.. إنتي عارفة بابا بيتعب قد إيه.. يمكن مزاجه وحش النهاردة. لازم نقدَّر تعبه دا ومنزعلوش.. صح؟"

هزت الفتاة رأسها موافقة، ثم ركضت نحو أبيها، وبهدوء:

"سوري يا بابا.. مكنتش أعرف إنك تعبان".
هدأ قليلاً، ثم ارتكز على ركبتيه ناظرًا إليها:
-"معلش يا حبيبتي.. أصلي متضايق شوية.. إيه رأيك تجهِّزي السندوتش اللي بابي بيحبه؟"
- "الله!! هو انت مش قلت إن بابي دي مياصة ودلع!؟"
- "خلاص يا ستي.. اتمايصي براحتك".
أسرعت الفتاة باحتضانه بقوة، حتى سقط كلاهما أرضًا.
- "يا حبيبي يا بابي!"
- "يا حبيبة قلب بابي! يلا بقى روحي اعملي السندوتش على بال ما أكلم ماما".
رمقته زوجته بنظرة عتاب، وأدارت طفلتها باتجاه المطبخ وأخذا بالمشي. بينما اكتفى هو بالصمت، والذهاب لغرفة النوم لتبديل ملابسه. في ذاك الوقت كانت زوجته مازالت تعد العشاء مع ابنتهما الصغيرة، التي أخذت ترص قطع الجبن الرومي بالطبق، وهي سعيدة لأن والدها سيتناول العشاء معهم لأول مره منذ أسبوع كان يغيب فيه حتى منتصف الليل، وأحيانًا كان ينام بعض أيامه بالمكتب.

أنهتا التحضير سريعًا، وأخذتا الأطباق إلى حيث طاولة الطعام التي نحتت زخرفتها باليد. كانت تلك الطاولة أكثر ما جذب انتباه الجميع بسبب تلك الزخارف التي زيَّنت خشبها الإيطالي اللامع. طلبت من ابنتها إحضار الخبز، وذهبت هي لتنادي زوجها، حين استوقفها صوته الآتي من الداخل، وكأنه يحادث أحدهم قائلاً:

-"أنا زهقت! أنا خلاص زهقت!!"

****

- "(علاء).. انت بتكلم مين!؟؟"

هكذا بادره والده بالسؤال، بعد فتح الباب بقوة. تلجلج (علاء) بالإجابة، عاقدًا يديه إلى خلف ظهره، وعيناه مسمرتان نحو والده، الذي أعاد عليه سؤاله مرة أخرى، فأجابه (علاء) مترددًا:

-"مكنتش بكلم حد".

أشار له والده بيده، أن يعطيه ما يخفيه خلف ظهره. لكن (علاء) أصر على إنكار أنه يحمل شيء خلفه. ازداد غضب والده، فاندفع نحوه يدفعه للجهة الأخرى؛ ليرى ما يخفيه، ليجده ممسكًا بتلك الزرافة التي كان قد رماها من قبل بصندوق النفايات منذ سنوات.

- "يعني ولد زيك عنده خمستاشر سنة، ولسه بيلعب مع زرافة!! هو انت خدتها بعد ما رميتها ولا اشتريت واحدة جديدة؟؟؟"

صمت (علاء) قليلاً، ليكسر صمته صوت والده، الذي أتى كالرعد في ليلة صيفية هادئة. فكر (علاء) بسرعة، ثم أخبره بأنه اشترى غيرها. كان يعلم ما يفكر به والده، لذا أمل أن يقوم برميها مره أخرى في صندوق النفايات، ليذهب هو ويحضرها مجددًا. تركه والده متجهًا بغضب نحو المطبخ، حيث كانت والدته تعد الغداء، مما أراح (علاء) لبرهة، فتنهد بقوة واطمئنان.

- "متخافش يا (حمدي).. أنا هاجي آخدك بعد ما بابا يرميك"

دقائق حتى سمع صوت والدته تصرخ، فخرج من غرفته مسرعًا، مما أدى إلى تعثره بسجادة الصالة. نهض مرة أخرى وقد شعر بكاحله يؤلمه، وأكمل طريقه وهو يعرج إلى حيث والدته –المطبخ- ليرى سبب صوتها المذعور. وما إن اقترب حتى لمح ضوءًا يختلط بين البرتقالي والأحمر، لم يعرف مصدره في البداية، حتى رأى (حمدي) وهو يشتعل بين يدي أبيه، الذي أخذ

يشعله بقداحة المطبخ من كل اتجاه؛ ليتأكد من أن النار ستلتهمه بالكامل. أخذ (علاء) يبتلع ريقه بصعوبة، ودموعه تتدحرج من مقلتيه، تاركةً ندوبًا على وجهه في انزلاقها.

- "حرام عليك يا بابا! (حمدي) حيموت!"

أجاب والده بغضب انفجر في وجهه فجأة كالبركان:

-"وكمان سميته!!؟ دا انت نهارك اسود!"

****

في الصباح التالي دخلت غرفتهما، وهي تتسلل على أطراف أصابع قدميها خوفًا من إيقاظه. ولكنه كان قد انتبه لدخولها؛ فلم يأته زائر النوم في تلك الليلة.

- "فيه إيه يا (سماح)!؟"

- "إيه دا انت صحيت!؟ معلش يا حبيبي قلقتك. بس كنت بدوَّر على عشرين جنيه فكة".

- "عايزاهم في إيه؟"

- "أصل بتاع الزبالة هنا، ودي الشهرية بتاعته، وأنا ممعاييش فكة".

- "طيب.. خدي من جيب البنطلون".

مدت يدها في جيب بنطاله تتحسس العملات الورقية، حتى أخرجت منه مجموعة من العملات، سحبت منها العشرين جنيه المطلوبة. أخذت المال، ثم سألته بصوت خافت:

-"هو أنا ممكن أديله كمان عشرة جنيه؟؟ أصله غلبان أوي".

- "كفاية العشرين جنيه دي.. أحسن يتملعن علينا ويطلب زيادة. إنتي متعرفيش الناس دي كويس زيي".

لطالما كان يحاول دائمًا إثبات أنه أكثر فهمًا للناس منها بحكم طبيعة عمله، وهي لم تناقشه يومًا في ذلك، فكانت تكتفي بالإيماء قبولاً أو الصمت. أعادت العشرة جنيه إلى حيث كانت، وطوت العشرين جنيه طيتين طوليًا، وتوجهت للخارج تمسك الباب لتغلقه خلفه، حين استوقفها طالبًا منها أن تتركه مفتوحًا؛ فلم تعد لديه رغبه بالنوم، وسألها أن تعد له طعام الإفطار؛ لأنه سيذهب للقسم مبكرًا اليوم. تنهدت وهي تومئ برأسها إيجابًا، وعادت لتعطي الزبال، الذي كان بانتظارها، شهريته.

****

تناول بعض اللقيمات الصغيرة على عجل، ورشف بعض رشفات من النسكافيه. وأسرع بارتداء ملابسه، متجهًا إلى العمل. أوقف سيارته أمام القسم، ونزل منها صافعًا بابها بقوة. كان الجو حارًا، وتكييف السيارة لا يعمل، وفوق كل هذا كانت الشوارع مكتظة بالسيارات والبشر، الذين كادوا يركبون فوق بعضهم من شده الزحام.

عبر مدخل القسم، مبادلاً العساكر إشاراتهم الرسمية. ولم يكد يخطو خطوة داخل مكتبه، حتى نادى للشاويش (عطية) آمرًا إياه أن يجلب له المسجونة (عزيزة) من الحجز، ويطلب من (فرغلي) تحضير فنجان من القهوة السادة هذه المرة. طرق (محمد) –الكاتب- بضع طرقات، قبل أن يفتح الباب ليدخل، ممسكًا بدفتره وكأس الشاي الخاص به.

- "صباح الخير يا فندم".

لم يجبه، فقط نظر إليه بتجهم، وهو يجلس بجانبه على كرسيه الخشبي القديم. كم مرة طلب منهم أن يبدلوه بكرسي آخر أكثر راحة حتى لا يتألم (محمد) من ظهره كالعادة!؟ وضع (محمد) كأس الشاي على طرف المكتب، وقام بفتح دفتره، وأخرج قلمه واضعًا إياه

بمنتصف الدفتر، وأخذ يحدِّق في كأس الشاي خاصته؛ خوفًا من أن يعاتبه الضابط ككل مرة من كونه يحضر طعام إفطاره معه للمكتب. لو كان يعلم الضابط أن (محمد) يستيقظ مبكرًا، ليستطيع ركوب باصاته الثلاثة؛ حتى يستطيع الوصول مبكرًا للمكتب. وكل هذا لأنه قام باستئجار شقة كان إيجارها (لقطة) كما أخبره السمسار. لو علم كل هذا، ما كان عنفه بكلمة 'افطر في البيت يا (محمد).. إحنا هنا مش في كافتيريا'، ليجيبه دائمًا 'حاضر يا فندم.. آسف يا فندم'. أفاق من شروده على كأس الشاي القابعة هناك بلا مرافق.

- "في إيه يا (محمد)!؟ ما تشرب الشاي قبل ما يبرد! عايزين نشتغل!"

أسرع (محمد) نحو كأس الشاي يحتضنها بين يديه، قبل أن يقبلها بشفتيه وهو يرتشف منها رشفاتها السحرية، الوحيدة القادرة على ضبط مزاجه حتى كأس الشاي القادمة. دخلت (عزيزة) وقد بدا عليها التعب وقلة النوم، عينان حمراوتان كالشمس وقت المغيب، تدور حولهما هالات سوداء كليلة غادرها القمر، هذه تبدو كقصة امرأة غادرها النوم مودعًا.

- "شكلك منمتيش. ولاَّ مرتحتيش عندنا!؟"
- "وكيف لي أن أنام بين نسوة، كل ما يقمن به هو الرقص والغناء طوال الليل، والضحك والسخرية مني إن تفوهت بكلمة!؟"
- "هو دا الحال عندنا. أومال كنتي فاكراه فندق خمس نجوم!؟ إحنا نجمة واحدة مش محصلينها".
- "واضح".

****

(٣)

بعد يوم طويل عند الطبيب، عاد (علاء) بقطعة من الجبس تلتف حول كاحله تحاول خنقه. أثقلت من مشيته، وكأنها تحاول دائمًا جذبه نحو الأسفل. لم يكن غاضبًا منها؛ فقد أنقذته من علقة ساخنة بحزام والده الأسود، كان سيقضي بعدها أيامًا حتى يذهب ألم الجروح التي يسببها ضرب والده الجلف. تسللت والدته إلى غرفته بهدوء، واحتضنته وقبلت يديه بحنان، وكأنه ما زال طفلاً صغيرًا، لم يفارق حضنها قط.

- "متزعلش من بابا يا (علاء).. أنا هجيبلك (مصيلحي) تاني.. متزعلش".

- "(مصيلحي) إيه يا ماما!!؟ اسمه (حمدي). وبعدين خلاص مينفعش؛ بابا لو لقاه هيموِّته زي ما موِّت الأولاني. خليه في المحل أحسن يمكن يشتريه حد تاني ويوديه بيتهم ويحافظ عليه أكتر مني".

احتضنته مره أخرى بقوة، حتى شعر بقطرات ماء تبلل وجهه.

- "والنبي سيبيني يا ماما.. أحسن بابا يدخل يلاقيكي حاضناني ويعمل مشكلة".

- "انت ابني يا (علاء).. يعني انت مش عايزني أحضنك؟"

- "عايزك طبعًا.. بس لا أنا ولا إنتي هنسلم من بابا وكلامه".

- "للدرجة دي خايف منه!؟"

- "أنا مش خايف منه.. بس خايف عليكي منه".

تنهدت بعمق، وكأن هواء الغرفة لا يكفي رئتيها. ربتت على كتفه، وكادت تحتضنه مره أخرى، لولا أنها سمعت خطوات زوجها تقترب وهو يناديها لتحضر له كوبًا من الشاي، مما جعلها تبتعد عنه بسرعة، لتقف بجانب دولابه وكأنها مشغولة بترتيب ملابسه، ليطل عليها مستعجلاً إياها بحركة سريعة من يده، لتجيبه بهدوء منكسر:

- "حاضر.. جاية أهو".

****

نظر لها الضابط بافتراس، وهو يستعجلها أن تنتهي من قص قصتها، ولكنها لم تلقي له بالاً، وأكملت كمن لم تسمع شيئًا:- "أتعرف يا سيدي أننا نعيش بمجتمع يحارب المرأة؟"

أشار بيده مستهزئًا:ـ "أيوة.. مبقاش غيرك عشان تقولي (مجتمع ذكوري) والرغي ده".
ـ "ذكوري؟ ليس ذكوريًا فقط، بل أنثويًا أيضًا".
ـ "كل شوية تغيَّريلي الموضوع؟ هتقعدي تتكلميلي عن حقوق المرأة والمساواة!؟"

نظرت بتأمل وكأنها تفكر:
ـ "يا سيدي.. بغض النظر عن حقوق المرأة التي لا تؤمن بها، فإني أقصد بـ (ذكوري وأنثوي) أن كلتا الصفتين اجتمعتا في هذا المجتمع الذي يحارب المرأة. أتعلم أن أول عدو للمرأة هي المرأة مثلها يأتي بعدها الرجل ثم المرأة نفسها؟ سأقص عليك قصة صغيرة".
ضرب الضابط المكتب بكفه بقوة:
"إنتي هتقعدي تحكيلي حكايات!؟"
ـ "إن لم يكن لديك مانع أرغب بتوضيح فكرتي".
ـ "بس دا بعيد عن القضية خالص. إنتي هنا عشان قضية قتل.. يبقى تقوليلي قتلتيه إزاي".
ـ "وكيف لك أن تحكم على فعل دون أن تعرف السبب الذي أوصل الجاني لما فعله!؟ لن تأخذ قصتي منك ثواني".

أشار إليها بيده أن تكمل، وأخذ يشعل سيجارته الرابعة في هذه الساعة. فاسترسلت قائلة:
-"أنت تعرف أن الحب هو أمتع شعور وأقسى شعور، جمع بين صفتين إحداهما قاتلة؛ فإما أن يرتفع بك إلى السماء، وإما أن يهبط بك إلى باطن الأرض يخفيك عن الأبصار. عندما كنت أعمل بمحل الكوافير جاءتني نساء كثيرات. بعملي ذاك كنت أجمع بين وظيفتين: كوافيرة، وطبيبة نفسية. المرأة تعاني في هذا المجتمع بكثرة، وتكتفي بالصمت، وبهذا تكون عدوة نفسها؛ فهي تضيع حقوقها وترتضي بالاستكانة؛ حفاظًا على حياتها وحياة أسرتها، التي تنساها في الغالب ما أن يجدوا حياتهم. لكن كثيرات منهن يعانين بسبب امرأة أخرى، خُلِقت لتصبح عدوًا ظاهرًا أو مخفيًا؛ فحتى إن كان الرجل هو من يقوم بالفعل، فالمرأة في هذا هي القول الذي حثه على ذلك. عرفت فتاةً كانت تأتيني باستمرار للاهتمام بنفسها، أخبرتني أنها أحبت شابًا بالجامعة، وما إن تخرجا حتى تقدم لخطبتها.. فجاءتها أمه وأخته وقد بدا الانزعاج على أمه؛ أرادته لبنت خاله كالعادة. لكنه رفض. تمت الخطبة، لكنه منذ تلك اللحظة أخذ يتغير

كثيرًا في معاملتها، حتى أنه صرخ بوجهها ذات مرة أمام عاملين بمحل الملابس، عندما كان يشتري لها ملابس العيد. هي اكتفت بذلك وأنهت علاقتها به. بعد عامين من ذلك عاد يحادثها على حسابها على الفيسبوك وكأنه يحاول جمع الشمل مرة أخرى. أخبرها بأن والدته قد توفيت وأن أخته قد تزوجت، وأنه لم يتزوج بعد، وأنه ما زال يحمل بقلبه حبًا لها. كل ما فعلته أن سألته سؤالاً واحدًا أصرت على أن تحصل منه على إجابة".

سألها (محمد) وهو واضعًا يده على خده كمن استغرق في سماع ما يسمع، في حين يراقبه الضابط متعجبًا:

- "سألته إيه؟؟"

- "سألته عن سبب تغيره فترة الخطبة. تهرَّب من الإجابة قليلاً، وبعد إصرار قال لها: 'سامحها الله! ليتني ما استمعت لها!' فطنت إلى من يحدثها عنها فقالت: 'الله يرحمها'. تعجب قليلاً وقال: 'لكنها ما زالت حية.. من تقصدين؟؟ آه تقصدين أمي! أمي لم تكن تذكرك بشيء؛ فلقد استسلمت للأمر الواقع'. سألته عن ماهيتها، فأخبرها بأنها أخته من كانت توسوس له بأشياء غريبة حتى تسببت في تركه لها، وذلك غيرةً

منها؛ فأخته كانت تكبرها سنًا ولم تكن قد تزوجت بعد، وعندما تزوجت أخبرته الحقيقة كي يعود لها".

سألها (محمد) مرة أخرى وقد أعجبته القصة:

-"ورجعت له؟؟"

- "لا لم تعد".

- "ليه؟؟"

- "أخته كانت عدوتها وهي ما زالت ـكما يقولون- على البر، فما بالك إن تزوجت بأخيها! لصنعت لنفسها عمة أعطت لنفسها الحق في إزعاجها وإيذائها. أخت الزوج في الغالب هي أكبر عدوة لزوجة أخيها؛ لما قد تحمله في قلبها فيما بعد من غيرة، ومحاولة لمقارنة إمكانيات الحياة بينهما والتي قد تكون متشابهة أو متباينة. هي تجد منفذاً فيها، والمسكينة ربما تكون قد وقعت في الفخ، فتنقلب إلى عدوة نفسها بصمتها لكي تسلم حياتها".

- "الستات دول ورا كل مصيبة.. أعوذ بالله منهم!"

- "لسن كلهن يا أستاذ (محمد)؛ فلو أنهن كلهن مصائب لما وجدن من يظلمنهن".

نظر الضابط لكليهما، قائلاً:

- "خلاص خلصنا الحدوتة!؟ قوليلي بقى قتلتيه ليه؟"
- "اسمعني أيها الضابط.. لقد أخبرتك من قبل.. لكي تصل إلى هذه النقطة يجب أن تمر على كل نقطة في حياتي حتى تصل لما تريد"
- "أنا بقى هحوِّلك للظابط (عدوي).. هو اللي هيخليكي تتكلمي؛ لأني زهقت ومعدش عندي طولة بال".
أتاه صوت صاحبه يناديه:
- "استنى بقى. متحولهاش عنده.. انت عارف إن (عدوي) مبيفرقش بين ست وراجل، وبعدين فيها إيه ما تسمع!؟ دا حتى حكايتها مخرجتش عن نطاق الأدب، وفي صلب الموضوع. إديها فرصة. قلتلك قبل كده خلي صدرك واسع وانت تاخد منهم كل حاجة".
لم يكن صديقه يعترف بالعنف ضد المجرمين، لدرجة أنهم إن تم القبض عليهم طلبوا أن يحقق معهم الضابط (عصام). كانوا يعترفون له بكل سهولة، على عكس الضباط الآخرين، وهذا ما كان يزعج زملاءه، ويزعج رؤساءه الذين لم يعترفوا يومًا بالسلم الذي يقوم به؛ فالمجرم بالنسبة لهم إنسان تحول لحيوان، لذا وجب عليهم معاملته كحيوانٍ ضال، بلا حقوق إنسانية؛ فأكثر

المجرمين لا يعرفون ما هي الإنسانية؛ فأكثر جرائمهم تبعد كثيرًا عن هذا المنطلق، بل تبدو أكثر بشاعة من الواقع نفسه. إلا أن منهم من كانت ظروف الحياة تحوله لمجرم رغم أنفه، تلك الفئة هي التي كان يستهدفها (عصام)، محاولاً ألا يحولها إلى مجرم ناقم على الناس والمجتمع، ما أن يلاقي ما يجرح كرامته كإنسان ضعيف.

نظر له قليلاً، وتبادلا نظرات الصمت، وقد لف الهدوء المكان.

****

يدخل والده الغرفة كعادته كالثور الهائج، يمسكه من ذراعه بقوة يكاد أن يخلعه في يده.

- "صحيح اللي أنا سمعته ده!؟ صحيح انت اللي بعت الجواب التافه دا لبنت الأستاذ (حفني) جارنا!؟ والله وكبرت يا (علاء) وبقيت تكتب جوابات غرامية!؟ كبرت عشان تحرجني قدام الناس بمعيلتك دي!! طب خليك في دروسك يا ثانوي، ولا مش عايز تجيب مجموع وتضيع حلمي!؟"

علاء وقد اشتد به الألم:

-"بابا.. أرجوك اسمعني بس".

-"أسمع إيه!؟ ماخلاص حطيت راسي في الأرض، وخلاص خليتهم يقولوا إني معرفتش أربي!"

خلع والده حزامه الأسود، ففزعت أمه لذلك، وأسرعت تضع ولدها خلف ظهرها. لكن هذا ما كان ليردع زوجها، الذي أصابته نوبة الجنون، وأخذ يضربهما، و(علاء) يحاول الدفاع عنهما بذراعه حاميًا جسديهما، وهو يصرخ بوالده أن يتوقف؛ فقد كبر على أن يُضرب.

توقف والده مصدومًا بما يسمع!

- "كبرت يا علاء!؟"

نظر له (علاء) بإصرار وتحد:

"أيوة كبرت! وزهقت بقى من معاملتك دي! مفيش مرة خدتني في حضنك وطبطبت عليا! مفيش مرة حاولت تسمعني! أنا كنت بحتاج لك ومش بلاقيك جنبي. لكن خلاص أنا تعبت وماما تعبت.. كلنا تعبنا يا بابا".

نظر لها وقد بدا مصدومًا في كليهما، وأخذ يسألها وكأنه يتمنى أن تُكذّب ما قاله ولدها:

-"صحيح يا فوقية!؟؟ تعبتي؟؟"

نكست (فوقية) رأسها للأسفل، تنهدت وتمتمت بصوتٍ هادئ:

-"آه تعبت".

تراجع والده للخلف، وتركهما بالغرفة يحتضنان بعضهما في منظرٍ يائسٍ عابس، وغادر هو المنزل ثائرًا، لا يعرف وجهته.

حقيقة الغضب دائمًا سيئة، فهي مجرد وسوسات وقلة صبر تؤدي لحالة من الانفعال الشديد، الذي يولد الخسائر. الغضب سمة الضعفاء، كانوا ضعفاء القلب أم العقل؛ فلو أنهم امتلكوا القليل من الحكمة، لوجدوا في الغضب مهزأة تودي بصاحبها قبل أن تودي بالآخرين!

****

(٤)

نظرت للأسفل، وقد أيقنت بأنها راحلة لا محالة إلى من لا يعرف للصبر حدودًا؛ فالصبر بالنسبة له ستكون كلمة ينفذ لها صبره. فكرت قليلاً في حيلة لتُلهيه عن قراره، فأخذت تسترسل في الحديث وكأنه لم يقل شيئًا، بينما هو يستمع لها وكأنه لم يفعل أيضًا؛ فالأمل حثيث صوتٍ هادئ، يسترسل للداخل باعثًا الطمأنينة، التي يغالب بعضها الزيف.

استكانت نظراتها للأسفل، وهي تهز رأسها مستطردة:

"فلنعد للماضي مرة أخرى. في وضعي أنا كانت الحياة أشد صعوبة؛ ليس لفقرنا بحسب بل لكوني فتاة في مجتمع ذكوري لا يرى مني غير جسدي"؟

قاطعها متعجبًا:

-"إنتي مش قلتي إن المرأة هي العدوة الأولى للمرأة، وإن المجتمع أنثوي!؟"

أجابته بهدوء:

-"لقد قلت إن المجتمع ذكوري وأنثوي؛ أي أن لكلٍ منهما نظرته، ولكلٍ منهما طريقته في التعامل معها،

سواءً بالخير أو بالشر. ولا أنكر أن المرأة أشد عداوةً للمرأة من غيرها، إلا أنه لا يمنع أن الرجل له عامل، ولو لم يكن شيطانه أنثى. الموضوع أن القريب أحيانًا يصبح كالغريب؛ غير مؤتمن ولا يمكن الاعتماد عليه أو الثقة به. فوالدي أول من ولَّى ظهره لي مع أول فرصة وجدها لبيعي. عدنا لبيع الجواري ولكن بشكل متحضر يسمى (زواج بالمدة). كان صديق والدي لا يقل عنه قذارة. اعتادا معًا على شرب الشيشة، وإن توفر لهم مالاً فالحشيش. جاءه يومًا يخبره بعريس الغفلة؛ رجلٌ ثري أتى مصر في أجازة يقضيها وأراد من يؤنس وحدته. سال لعاب والدي كالكلب ما أن يأتِه طعام، وطمع بالمال الذي عُرِض عليه وباعني، أقصد (وزوَّجني). لا أكذبك القول أنني كرهته وكرهت والدي وكرهت الرجال كلهم.. لكني قررت ألا أستسلم وأن أقلب كل شرٍ يصيبني إلى خير، بل وأن أستغل هذا الشر. وهذا ما فعلته مع زوجي الأول؛ دللته أيما الدلال حتى أصبح يُغرِقني في حر ماله؛ فما طلبته طلبًا ورده. كان رجلاً كريمًا وطيبًا. تعجبت أن يكون شخصًا بهذه الصفات يقوم بالزواج بهذه الطريقة؛ فلم يكن الزواج العرفي

زواجًا يُشرِّف من يقوم به؛ فلا زاده شرفًا ولا زاده رقيًّا، بل سقط به في وديانٍ من الوحل وقلة القيمة. المهم.. تملكت الشقة التي وجدتم بها الجثة".

قاطعها بسرعة:

-"إذًا تعترفين بأن الجثة التي في شقتك تعود لكِ".

- "سيدي.. لقد قلت إنني أمتلك الشقة ولم أقل أمتلك الجثة. المهم امتلكت أيضًا محل كوافير، اتخذته كعملٍ أُضيع فيه وقتي عندما يتركني مسافرًا. رغم أني في الحقيقة كنت أرغب بالاستقلال، فلو أنه طلقني يومًا فلن أجد من يطعمني، وما كنت لأعود لأبي ليبيعني مرة أخرى".

زفر فجأةً وقد بدا عليه الملل، ثم التفت لـ(محمد) يسأله:

- "عمرك سمعت عن ظابط ضيَّع وقته يسمع قصة حياة متهمة!؟ دا زملاتي بينجزوا في قعدة واحدة".

أجابه (محمد) بهدوءٍ خشية أن يثير غضبه:

-"لا.. ولكن ما الضر في سماعها؟؟"

نظر له الضابط بحاجبٍ مرفوع:

-"إيه يا (محمد)!؟ إحنا جايين نسمع حواديت!؟"

ضحك صديقه مقاطعًا:

-"أنا كنت باسمع لهم عشان أقدر أحكم عليهم لو كانوا بيكدبوا. انت خسران إيه!؟ كده كده انت مستني تقرير الطبيب الشرعي. وبصراحة.. أنا عايز أسمع حكايتها".

قطب حاجبيه مستاءً، وأمر كاتبه بأن يحوِّل القضية للضابط (عدوي). جذب چاكت بذلته، وتوجه للباب راحلاً يتبعه (عصام)، وأشار للعسكري بإعادتها للحجز. صاحت به قبل أن يغادر:

-"أعلم أنها قصة تقليدية، ولكن هناك أحداثاً قد تثيرك!"

****

أول يوم في كلية الشرطة كان يومًا حزينًا لـ (علاء). كان يكره كل دقيقة يقضيها هناك. تمنى لو أنه انتسب لكلية الهندسة كما كان يتمنى. لكنه وُلِد عسكريًا وسيموت عسكريًا كما أراد والده. والده الذي مهما فعل من أجله لا يرضى ولو قليلاً؛ فقد ازدادت قسوته منذ ذلك اليوم الذي وقف فيه في وجهه، وربما تلك المرة هي الوحيدة التي لم تتكرر. هو يشعر بثقلٍ يحنيه للأسفل، فلم يعد يرى إلا تحت قدميه. أصبحت حياته أكثر رتابة، وأكثر ضيقًا، حتى ماتت والدته فأصبح أكثر

عصبية. لم يعد يحتمل البقاء بالمنزل، كلما نظر لعينيّ والده خاطبه سرًا بأنه السبب في موت أمه.

وكأنها انتظرت حتى وضعته على بر الأمان ثم رحلت، فلقد أصبح بإمكانه الآن أن يغادر إن أراد. سيستطيع الآن الاعتماد على نفسه؛ فقد أصبح رجلاً يمكنه أن يتحمل. ولكنها كانت مخطئة؛ ففي ذلك الوقت كان ضعيفًا أكثر. احتاجها بشدة جعلته يتمنى اللحاق بها. لكن اللحاق بها كان بعيدًا. طريقٌ طويل يحتاج إلى صبر. يحتاج إلى قوة فقط؛ لتفادي والده ومشكلاته. يحتاج قلبًا يستطيع أن يصمد أمام تلك الموجات الغاضبة التي اجتاحته بعد موتها.

الغريب بالأمر أن والده قد استكان. أصبح يقضي وقته صامتًا. لم يعد يتحدث أو يعطي أوامر. حتى تمارين الصباح لم يعد يداوم عليها. أصبح صباحه ثقيلاً، بطيئًا، كعربة يجرها حمار. لم يعد ير ابنه إلا ساعاتٍ قليلة إن تواجد بالمنزل؛ فمنذ دخل الكلية وهو لا يراه كثيرًا. ربما كان تهربًا من لقائه، ربما لأنه ما زال يلومه على موتها.

****

- "حبيبي.. (توتة) عايزة مصروفها".

هكذا استيقظ على صوت زوجته، تطالبه بهدوء أن يعطيها بعض الفكة للطفلة. أشار لها لجيب البنطال، فذهبت تسحب منه المال، حين سقطت منه بدون قصد ورقة صغيرة وردية اللون. أعادتها بصمتٍ دون أن تسأله، لكن قلبها كان قد امتلأ بالشك. رمقته بنظرة لم يفهمها، ثم أخبرته بأن الفطور جاهز وأغلقت الباب.

إن اجتمع الحب مع الشك، شكَّل انفجارًا كاملاً. فالثقة كالمنزل؛ إن كان بلا باب، سمح لكل شيءٍ أن يدخل بدون استئذان. كذلك الشك، من السهل أن يعلق بقلبك، ولكن من الصعب إخراجه؛ فالجميع يبحثون عن براهين تبرئهم؛ كي يسمحوا لنفسهم بالشك بغيرهم. وبالرغم من أنها كانت تحبه، إلا أنها من فرط حبها له كانت تتحمل ما به من صفاتٍ، والتي كانت كفيلة أن تجعل أي امرأة تتركه سريعًا بدون النظر للخلف.

- "مامي.. عايزة أقول لبابي صباح الخير".

مسحت بيدها على وجه الطفلة بحنانٍ، مبتسمة:

"معلش يا حبيبتي.. بابي لسه نايم، وباص المدرسة جه".

غادرت الفتاة ركضًا إلى باص المدرسة، ليلحق بها مغادرًا إلى عمله. في الطريق للقسم أثارت رائحة الفول شهيته، فتوقف بسيارته بجانب العربة، وطلب من صاحبها طبق فول بالزيت الحار. نظر له الرجل العجوز هازًا رأسه، ثم فاجأه بسؤاله:

-"مالك يا بني؟ شكلك تعبان؟"

نظر له مشمئزًا، وبكل جلافة قال:

-"انت هتصاحبني!؟ هات الأكل وانت ساكت!"

ابتسم الرجل، وطلب من مساعده أن يجهِّز طبق فول وطبق طعمية، وأن يضعهما على الطاولة الصغيرة بجانبه. أشار له أن يجلس بينما يحضِّر الأطباق. جلس (علاء) وهو يشعر بالضيق، ولكن جوعه أسكته قليلاً عن التذمر.

وضع الشاب الطعام على الطاولة، فتعجب (علاء) سائلاً:

-"أنا مطلبتش غير فول!"

فأشار الشاب بكتفيه بعدم علمه:

-"أوامر الحاج".

بدأ (علاء) ينهل من الطعام بشهية كبيرة، وكأنه يتلذذ بكل لقمةٍ يأكلها. كان العجوز ينظر له مبتسمًا، وما إن فرغ من طعامه حتى اقترب منه العجوز وجلس على الجهة الأخرى من الطاولة.

- "قولي بقى يا بني.. مالك؟؟"

- "ده مش شغلك. حسابك كام؟؟"

- "مش عايز فلوس يابني.. اعتبرني عازمك المرة دي".

- "انت هتبقشش عليا!؟ ولا عشان عرفت إني ظابط!؟"

- "وأنا هعرف منين يا بني!؟"

نظر له (علاء) بنظرات يملؤها الشك والريبة، تجاهل العجوز نظراته ثم قال له:

-"هل أتعبتك الحياة بأهلها؟؟"

نظر له، وقد اختلط عليه الشعور بالغضب لتدخله في ما لا يعنيه بالراحة من أن هناك من يشعر به. لم يكن يرغب بجعله يصمت، ولم يكن يرغب بجعله يكمل أيضًا، لذا صمت.

- "يابني.. إحنا في غربة".

- "غربة!!؟"

- "آه.. الحياة دي غربة، بنقعد نجتهد فيها ونحوِّش ونبعت لحياتنا التانية عشان نبني فيها قصور وجناين. عشان لما نرجع للحياة الأصلية نعيش في نعيم. وكل واحد على قد مجهوده هياخد؛ يعني الكسول عمره ما هياخد زي اللي تعب على نفسه وعلى الناس".

- "حياتنا التانية!!؟ انت شكلك خرفت".

- "يابني حياتنا التانية مش هتيجي غير لما نموت ونتولد تاني. الموت دا رحلة سفرنا ليها. انت عارف يابني.. أنا بشحت الدعوة من الغلابة. طول عمري مبقصرش معاهم عشان عايز ميزان حسناتي يتقل".

صاح (علاء) بوجهه وهو يهم بالوقوف:

- "انت هتقعد تديني محاضرة عن الحياة والموت!؟"

أمسك الرجل بذراعه، طالبًا منه الجلوس:

- "اقعد يا بني.. أنا مش بديك محاضرة ولا حاجة.. أنا بريَّحك".

- "بتريَّحني إزاي عايز أفهم!؟"

- "ما انت لو عرفت إن الحياة دي متستاهلش إن إحنا نزعل من حد ولا نكره حد، الحياة أيام قلبها شوية ساعات وهتنقضي، قلتلك زي الغربة بنستحمل فيها كل

حاجة عشان القرش.. عشان نرجع نعيش عيشة نضيفة. تتعب نفسك ليه!؟ عيش حياتك بما يرضي الله وانت هترتاح.. سامح وانسى واغفر للناس".

تنهد (علاء) بقوة:

- "أسامحهم إزاي!؟"

- "كل ما يئذوك التمس لهم العذر، وانت هتقدر تسامح وتنسى".

- "الكلام سهل.. الفعل صعب. حسابك كام خليني أقوم؟"

- "خليها عليّا المرة دي".

- "هو أنا بشحت منك!؟"

- "وهو لو والدك عزمك برة هياخد منك فلوس!؟ اعتبرني والدك يا سيدي".

صمت قليلاً ثم ردد بهدوء:

-"والدي..!"

هم بالوقوف مغادرًا دون أن يقول شيئًا، حين لوَّح له العجوز مودعًا وهو يصيح له:

-"هستناك بكرة".

****

(٥)

تقدم نحو مكتبه، ليجد صديقه في انتظاره. كان (محمد) قد تأخر لأول مرة، لدرجة جعلته يسأل عنه العسكري، الذي وضَّح جيدًا عدم علمه عن سبب تأخيره، ولم يبدِ قلقًا لذلك؛ فهو يعلم جيدًا ما يعانيه (محمد) كل يوم في مواصلاته.

- "الغايب حجته معاه".

هكذا بادره العسكري، قبل أن يدخل (محمد) لاهثًا، وكأن ذئبًا كان يجري خلفه، وأخذ في الاعتذار بشدة، وهو يعلم بأنه سيتم تهزئته، أو رمي كلمتين صادمتين له من تحت الحزام. لكنه تفاجأ بالضابط يسأله ألا يتأخر مرة أخرى في هدوء، ثم التفت للعسكري طالبًا منه أن يحضر (عزيزة). (محمد) من الدهشة كاد يفتح فاه؛ فهذه المرة الأولى التي لا يعلّق الضابط على تأخره أو حتى يعنفه، حتى أنه طلب (عزيزة) بعد أن كان سيحوِّل قضيتها للضابط (عدوي).

غمغم بهدوء: "محدش فاهملك حاجة!"

وفتح الدفتر بهدوء دون أن ينطق كلمة، حتى أنه استحى أن يطلب كأسًا من شاي كعادته.

التفت الضابط نحو (محمد) يسأله، وهو ينفث الدخان:

-"فين كوباية الشاي بتاعتك يا (محمد)؟ شايف إيدك فاضية النهاردة".

- "ملحقتش يا باشا أجيب حاجة".

- "طب روح على بال ما ييجي العسكري ومتتأخرش".

هب (محمد) من مكانه مسرعًا قبل أن يغير الضابط رأيه، وكأنه لا صدق أن يجد منفذًا؛ فبدون كأس الشاي سيبقى طوال اليوم يعاني الصداع. في ذلك الوقت أدخل العسكري (عزيزة) للضابط، الذي سألها أن تجلس. وما إن خرج العسكري حتى بادرها:

- "نمتي إمبارح ولا زي كل يوم؟؟"

- "أراك قد غيرت رأيك في تحويلي، وأنا شاكرة لذلك. أما بالنسبة للنوم فلا يبدو أني سأستطيع النوم هنا، ولكني سأتحمل؛ فمشكلتي هذه كالخندق الذي سقطت فيه. الخندق الذي نُوضَع فيه، ويجعلنا في طرف أمرين: إما أن نقاوم، أو أن نستسلم. فالحياة لا تخلو من الخنادق؛ إنها الحرب للوصول للسلام، حربٌ مع النفس؛

فالنفس كالخيل، بربري في طباعه القاسية أحيانًا، يحتاج لفارسٍ لتهذيبه. فإن أحسن الفارس تهذيب نفسه، ابتعدت به عن المهالك".

- "يا صباح الحِكَم! حاجة غريبة إنك مثقفة رغم إنك جاهلة".

- "الجاهل ليس من لا يستطيع القراءة والكتابة؛ الجاهل هو الذي يقرأ ولا يفهم، أو لا تؤثر القراءة عليه، فلا تزيده خطوة ولا توسع من مداركه. القراءة تغيِّر حياتنا، لكنها تحتاج لعقلٍ قادرٍ على التوسع واستقبال الأفكار الجديدة بصدر رحب، بدون الميل لما تعود عليه. فإن قرأت وتمسكت بعاداتك السيئة، ستظل جاهلاً. المثقف بالنسبة لي هو من يستفيد من القراءة في تغيير حياته، في تعلم الدروس بدون الخوض فيها. يقرأ فيتعلم من غيره، فيزداد حكمة مع الوقت".

- "بصي أنا مش فاضي لكلام المثقفين ده. خلينا في قضيتنا اللي مش هتنتهي دي".

ضحك صديقه، وهو يقول له:

- "الست دي بتقول كلام زي الفل".

أشار له أن يصمت، ثم التفت نحوها:

- "نفسي أعرف لما إنتي عاقلة كده.. مش عارفة إن الجريمة يعاقب عليها القانون وإنها حاجة غلط".
تنهدت بهدوء، ثم استطردت:
-"المتهم بريء حتى تثبت إدانته".
صمت قليلاً، حتى قاطع صمته دخول (محمد) بكأس الشاي. ما إن رآه حتى صاح به:
-"اتأخرت ليه!؟ أنا مش قلتلك دقيقتين!؟ اتفضل اقعد!"
وأشار للمقعد بعصبية. تعجب (محمد) منه؛ فلم يعنفه على تأخره في الصباح، ويعنفه على تأخره في إحضار كأس الشاي الذي طلب منه أن يحضره. عجيبٌ أمره!
- "اكتب يابني.. فُتِح التحقيق مع (عزيزة السيد)، اسم الشهرة (عزيزة مونرو)".
التفت إليها مقاطعًا:
- "إلا هو ليه سَمُّوكي (عزيزة مونرو)؟؟ مش شبه (مارلين مونور) يعني!"
ابتسمت له هازةً رأسها بالنفي:
- "معك حق؛ فلست أشبهها لا من بعيد ولا من قريب. أطلقوا عليّ هذا الاسم لأنني كنت ممتازة في عملي أتقنه حق الإتقان؛ فما تأتيني من عروس، حتى وإن كانت

قبيحة، حتى تخرج من عندي أجمل امرأة وكأنها (مارلين مونرو) كما حدَّثني أحد جيراني البقالين. ومنذ ذلك اليوم اجتمع اسمي بـ (مونرو)".

ـ "طيب نرجع لقضيتنا.. عرفتي الضحية منين؟ وإزاي قتلتيه؟؟"

ـ "لماذا تصرَّ يا سيدي على أنني القاتلة!؟ كل ما أتمناه منك أن تكمل الاستماع لقصتي".

قاطعها (عصام) سائلاً:

ـ"حصل إيه لجوزك؟؟"

فأكمل (علاء) يسألها:

ـ"صحيح جوزك راح فين وإيه اللي حصله؟؟"

ـ "لا شيء.. كنهاية كل القصص التي بدأت بهذه الطريقة.. أجبرته زوجته بعد علمها على تطليقي".

ـ "وعرفت إزاي وهي في بلد تانية؟"

ـ "مشاكل تجار.. أحدهم رآنا معًا فلم يكذِّب خبرًا وذهب ليخبرها. كانت زوجته صاحبة المال، لذا لم يكن ليتركها لأجلي، رغم أنه كان قد أحبني بالفعل. لكن الحب أحيانًا لا يكون كافيًا لإنجاح علاقة؛ فالمال يأتي في المرتبة الأولى وإن سبقه الحب. المال يُشعِر المرأة بالأمان

والرجل بقوته. فإن فُقد، فقَد كلاهما الشعور بالراحة؛ فالمرأة لن تشعر بالاستقرار، والرجل سيشعر بالعجز".

- "وإيه اللي حصلك بعد ما سابك؟"

- "لا شيء.. أصبح عندي منزل أحتمي بجدرانه، ومحل أصرف منه لإعاشتي. كنت مرتاحة البال، هادئة النفس، فلم أعد بحاجه لأحد.. ولكن في نفس الوقت كنت أشعر بالوحدة القاتلة بكل ما تعنيه الكلمة؛ فليس من السهل ألا ترى بالبيت غير ظلك. البيت أصبح أصغر من غرفة، أصبح يضيق عليّ بشكل جعلني أهرب منه إلى المحل ولا أعود له إلا للنوم فقط. الوحدة لعابدٍ زاهد قد تكون الدنيا وما فيها، أما بالنسبة لامرأة بلا أهل، بلا أولاد، موحش ومثير للسخط. ربما هذا ما دعاني لأن أحب أول من يطرق باب قلبي، حتى وإن كان غير صالح للحب".

- "إنتي اتجوزتي تاني؟؟"

- "لا أعتبره زواجًا.. بل قصة حب واستغلال؛ أنا استغللته كي أقضي على شعوري بالوحدة، وهو استغلني كي أصرف عليه. كان شابًا ذا بشرةٍ سمراء وعودٍ يافع.. كان دبلوم صنايع ويرغب بالعمل.. كان أفضل كوافير عندي، حتى أنه بدأ بجذب زبائن أكثر

للمحل. كانت يداه ـكما يقولون ـ تلتف بحرير، متخصص كوي شعر وصبغة بطريقة تدل على كوافير في طريقه لأن يصبح صاحب محل يومًا ما. كان طموحًا وهذا ما أحببني فيه أيضًا".

- "يعني حب مبني على مصلحة".

- "نعم.. لكنه للأسف تحول إلى حب حقيقي بالنسبة لي، ورغم علمي أنه يقوم باستغلالي إلا أنني أحببته. في يومٍ من الأيام جاءني رجل بدا عليه أنه مُحضَر، أعطاني ورقة. كان أحدهم قد رفع على المحل قضية ولا أعرف السبب. سلمته المحضر وطلبت منه أن يتابع الموضوع. بعد فترة أخبرني أنه يحتاج إلى توكيل مني لمتابعة القضية، وبالفعل ذهبنا لمحامي معرفته وجهَّز لنا التوكيل ووقَّعته. اكتشفت بعد ذلك أنه قد تم خداعي؛ فلم يكن هناك قضية ولا شيء، واستخدم هو التوكيل لبيع المحل باسمه، والحمد لله أنني لم أخبره بأني أعيش في شقة ملكي، لكان أخذها هي الأخرى. جاء خوفي من الحسد ميزة، حتى بعد أن أحببته لم يسألني يومًا عنها لعلمه مسبقًا أنها إيجار".

ـ "عملتي إيه!؟ أكيد قتلتيه. وبعدين إزاي يعني معقولة مقريتيش المُحضَر ولا التوكيل!؟"

ـ "الثقة العمياء يا سيدي جعلتني كعروس الماريونيت، يحركني حيث شاء. أو ربما وقتها لم أرغب بأن أرى أو أسمع. صدِّقني أنه كان يستحق القتل؛ فمن يقوم بخداع امرأة لمجرد الحصول على مالها لَحقارة تدعو إلى التقزز. علمت بعدها أنه تزوج فتاة ممن كن يعملن لدي. أرأيت حقارة أكثر من هذا!؟ ما كان مني إلا أن ذهبت لإلغاء التوكيل. حاولت أن أرفع عليه قضية، لكن القانون لا يحمي المغفلين مثلي. هو اعتقد أنه رجلٌ بخداعي، رغم أنه لا يصل إلى حرف من حروف كلمة (رجل)".

نظر لـ (محمد) وهو يأمره أن يكتب:

ـ"يتم إحضار المدعو.. هو اسمه إيه؟؟"

ـ "اسمه (مدحت عبد الصبور)"

ـ "يتم إحضار المدعو (مدحت عبد الصبور) لأخذ أقواله".

****

(٦)

عربة الحياة تركض، والأعوام تمضي. الورود تذبل، والأشجار يصيبها الخريف، والإنسان يصاب بالخرف. العربة لا تقف ولكنها تدهس كل من أمامها، حتى أقرب الناس إليها لابد أن يتأذوا من سرعتها؛ فقد انصهر والد (علاء) مع الأيام، حتى أصبح كمن يزيد عمره عن المائة سنة. لم يجعله ضعفه مقربًا لابنه، الذي مازال ينظر إليه على أنه قاتل والدته. والدته التي تحملته كل تلك السنوات من أجل ابنها، من أجل ألا تحطم تلك الصورة الجميلة التي ترسمها عنهم كعائلة طبيعية. يأتي في الأخير رجل مثله ينفيها عن حياته بكل سهولة، ليعانق أخرى عناق الحياة.

كيف أمكن لرجلٍ لا يعرف مكان قلبه من ذراعه أن يحب أحد!؟ كان أولى به أن يحب زوجته وابنه، بدلاً من أن يحب امرأةً لا تمت لواقع حياتهما بصلة. كيف عرفها وكيف أضاع معها بضع سنين عشق!؟ لا أحد يعرف. حتى جاء اليوم الذي خانته هي بنفسها، وأتت لزوجته تفتخر بأنها أخذته من أحضانها، وكأن أم (علاء) كانت

لتهتم وقتها! كل ما فعلته تلك اللحظة أنها ابتسمت وقالت لها بسخرية: "لو خدته القرعة تبقى تاخده أم الشعور". أغاظتها تلك الكلمة كثيرًا، لذا عادت إليه تدس له من القول الكثير. وبدلاً من أن يأتي معتذرًا جارًا ويلات الخيبة وراءه، يستسمحها لما فعل. جاءها كالطاووس غير معترفٍ بخطأ. كل ما فعله أن هاجمها وقبَّح منها ومن أفعالها، أخبرها بأنه يكرهها ولا يحبها، ثم غادر موليًا الأدبار نحو أحضان عشيقته، بعد أخذ بحقها وبرهن لها عن حبه.

رأى والدته تبكي بحرقة. لقد كرهته جدًا تلك الليلة. تمنت لو أنها ارتاحت منه بالموت. سألها مالها لا تطلب الطلاق!؟ فأخبرته بما قد يحدث لو طلبت الطلاق؛ سيرميها وطفلها بالشارع، ليتلقفها المجتمع بأسنانه، باحثًا وراءها عن أسباب طلاقها؛ لكي يضعها تحت منظاره. كل نفس قد تتنفسه سيُحسب عليها، حتى الضحكة ستصبح ممنوعة. طفلها لن يتربى كما أرادت؛ فمن الذي سيصرف عليها من إخوتها، الذين لم تعد تربطهم بها علاقة قوية بعد زواجهم كالماضي!؟ سيكرهها الجميع وسيستثقلها الكل. سيتمنون لو أنها

ترحل وقد يغصبونـها على أن تعود لزوجها. إذًا لو تركته لأجل كرامتـها، لعادت إليه مرة أخرى بلا كرامة.

****

مأزق عاطفي. المآزق لا تنتهي طالما أنت لا تعطي بالاً لمن تحب. الموضوع لا يحتاج لأن تُفسِّر أو تَعتذر. كل ما في الأمر أنك تحتاج لإعادة ترتيب أولوياتك، ولن تجد مأزقًا في إحياء حبك كل دقيقة في حياتك والاستمتاع به.

عاد لمنزله ليجد زوجته مرتدية فستانها الأزرق، وقد بدا عليها استعداد من سيذهب لحفلة. نظر إليها يسألها إن كان اليوم عيدًا ليراها بهذا الجمال، لكنه علم أنه قد ارتكب جرمًا عندما طأطأت رأسها إلى الأسفل في حزن.

- "شكلك نسيت".

- "نسيت إيه!!؟؟ كم تاريخ اليوم؟؟؟"

حتى تاريخ اليوم لم يعد يذكره. سلبه رتم حياته السريع الشعور بالوقت. سألها بهدوءٍ عما نسيه. هذه المرة لم تكن لتستكين لتهدأ الأمور، لم تكن لتتدلل ليمر الأمر. هذه المرة كانت قد استفاقت إلى شعورها الدفين بالوحدة في وجوده. لأول مرة يعلو صوتها فوق صوته وهي تخاطبه غاضبة عن كونه نسى أجمل يومٍ في حياتهما،

أو ربما في حياتها هي. عيد زواجهما الثامن. بدا له يوم كأي يوم. لم يعد يذكره. بل لم يعد يذكرها. نظرت إليه بعينين يملؤهما الغضب والعبرات:

-"كل اللي بشوفه دلوقتي في برواز حياتنا صورتي أنا وبنتك. انت معنتش فيها ومحاولتش حتى تتواجد. مفيش بصمة في البيت تدل عليك، حتى بنتك العلاقة بينكم شوية تقطع وشوية تتوصل زي شبكه المحمول. محاولتش تتقربلها، أو حتى تتقرب لأمها. انت اتجوزتني ليه!؟ عشان بتحبني ولا عشان تعيش حياتك زي كل الناس!؟ فكرت فيا كأسرة ليك، ولا أهي واحدة هتتجوزها وخلاص. أنا معنتش عارفة انت بتبعد مننا، ولا إحنا اللي بقينا نبعد عنك بسبب أفعالك. مش قادر تنسى الماضي ولا تسامح؟ طب ذنبي أنا وبنتك إيه إن إحنا نعيش نفس ماضيك بدون مشاعر تراعينا، ولا حب يحتوينا. انت في يوم من الأيام حسيت بالعطش ده، محاولتش ليه متدوَّقهوش لينا!؟ محاولتش ليه تصب عطشك فينا، وتحتوينا!؟ حاولت أحتويك وأصبر عليك لكن خلاص لحد إمتى!؟ لو كان في حياتك حد تاني، قولي.. على الأقل ألاقي سبب يشرح اللي انت فيه. كنت

سبني يا أخي ومتوجعش قلبي. أنا مش عايزة بنتي تعيش في جو لا هو أسرة مستقرة ولا هو فَرَداني. أنا ممكن أستحمل، لكن مش هرضالها إنها تعيش مع أبوها كأنه راجل غريب، ولا كأنه جوز أمها. أنا رايحة عند ماما. تقدر تبعتلي ورقتي هناك".

****

عاد لمكتبه وقلبه ممتلئ باليأس والحزن والغضب؛ فكيف لها أن تفكر في تركه!؟ وكيف له أن سمح بالأمر أن يصل إلى هذا الحد!؟ هذا ما كان (عصام) يحذره منه دومًا؛ ألا يكرر مأساة ما حدث له في صغره. جاءه (عصام) يسأله عن سبب غضبه، ليحكي له ما حدث بالتفصيل.

- "حذَّرتك يا صاحبي. انت اللي مكنتش بتسمع كلامي. مراتك بنت ناس وانت قسيت أوي يا صاحبي".

- "اسكت بقى يا عم (عصام).. مش ناقص كلام وحياتك".

- "طيب.. شكلك هتبات هنا يا صاحبي وأنا معاك".

أطبق الصمت على كليهما، حتى قاطعه (علاء) بقوله:

-"أنا هطلب (عزيزة) أسألها شوية".

- "براحتك يا صاحبي.. يمكن تلاقي عندها الإفادة".
- "إفادة إيه!؟ دا تحقيق رسمي!"
- "و(محمد) مش موجود!؟"
- "خلاص مش رسمي. اسكت بقى يا (عصام)!"
نادى للعسكري، وأمره بإحضار (عزيزة) من الحجز.
- "كملي يا (عزيزة) حكايتك".
- "هل معنى ذلك أنك بدأت تصدق أنني بريئة!؟"
- "إنتي مش قلتي (المتهم بريء حتى تثبت إدانته)؟ كملي بقى".
- "صدقتَ. لنعد لقصتنا.. منذ فقدت المحل وأنا لا أعمل. كرهت حياتي كثيرًا.. تمنيت لو أنني قتلتهما معًا، لكني كنت أعود لرشدي دائمًا. فقدت الأمل لفترة؛ لا عمل.. لا حب.. لا شهادة. من سيقبل بأن أعمل لديه دون شهادة!؟ فلم أكن لأقبل أن أعمل في إحدى محال الكوافير، فكيف بعد أن كنت صاحبة محل أن أعمل أجيرة تحت إمرة أحدهم!؟ سمعت بعد ذلك بأن المحل بدأ يخسر لعدم وجودي، وحتى زبائنه انقطعوا عنه بعدما علموا بما فعله بي؛ فأنت تعلم محل الكوافير محل ثرثرة لا تخفى فيه خافية. بعدها سمعت أنه باع المحل لأحدهم

واختفى. صاحب المحل الجديد كان يعرفني، لذا طلب مني أن أمسك إدارة المحل ولي نصف الأرباح. لم أكن لأرفض في وقتٍ كنت أحتاج فيه لرغيف الخبز الحاف، ولو أنني تماسكت لكنت سقطت في مغريات الأفاعي من حولي؛ فالفقر يسقطك في غياهب الضياع، تصبح فريسة لكل صاحب قلب مريض. كوني طالق زاد الأمور تعقيدًا لي؛ فالجميع أصبح يحاسبني على كل شيء. الجميع أصبح وصيًّا عليّ دون أن أمنحه الإذن. الجميع يتدخل بحياتي فارضًا نفسه، ينظر لي بنظرات الشك طوال الوقت بشكل جعلني أشك بنفسي. شيء مخيف يا سيدي أن تجد المرأة نفسها في مجتمع لا يعترف بشرفها إلا وهي على ذمة رجل. أليس غريبًا حال المجتمع يا سيدي؟"

قاطعت شروده حين تذكر حديث والدته عن نظرة المجتمع للمطلقة، هز رأسه وسألها أن تكمل.

- "أصبح الوضع معقدًا أكثر. كنت لا أهتم كثيرًا بتلك النظرة. ولكن كثر الضغط -كما يقولون- يولِّد الانفجار، خاصةً بعد أن تم خيانتي. كل ما كنت أطمح به في تلك الفترة، أن أسترد مكانتي كصاحبة محل، لذا كنت أجمع

كل ما باستطاعتي جمعه. كنت أُهلك نفسي بالعمل. حتى اليوم الذي أتاني فيه والدي يخبرني برغبته في بيعي مرة أخرى. وجاء ذلك في وقته؛ فقد حانت ساعة انفجاري. لم أتركه إلا بعد أن صارحته بكل ما في قلبي من ناحيته، وكأي أب -ساخرة- يحب ابنته ساومني على أن يتركني في مقابل مادي. تصور أب يساوم ابنته على حريتها، مقابل أن توفر الحشيش له ولأصحابه. ماذا سأحظى من عائلة لا أستطيع التفاخر بالانتماء إليها!؟ حتى والدتي انقطعت عنها حتى لا أراه. كنت أرسل لها المال خفية مع أحدهم. هكذا الإنسان عندما ينتمي إلى جذور غير نافعة، تجعله كالورقة الصفراء لا يُنظَر لها بعين الجمال. وهكذا يقضي حياته كلها خريف".

****

- "مامي هو بابي زعلك؟"

هكذا بادرتها طفلتها وهما في السيارة متجهين إلى منزل والدتها.

- "لا يا حبيبتي".

- "أومال بتعيطي ليه؟؟"

- "أنا مبعيطش.. دا أنا عيني بتوجعني شوية".

الفتاة غير مصدقة:

"لأ انتي بتعيطي بسبب بابي.. أنا مش بحب بابي.. ومعنتش هكتبله جوابات صغيرة".

- "جوابات!!؟"

- "أصل الميس في المدرسة قالتلنا نبعت جواب صغنن لحد بنحبه، فجبت ورقة وردي من المكتبة، وكتبت لبابي فيها إني بحبه وحطتها في جيب البنطلون. تصدقي يا مامي ماقاليش حاجة لما قراها!"

تذكرت تلك الورقة الصغيرة التي لمحتها بجيبه، هزت رأسها وقد فطنت بأن لا وجود لأخرى في حياته، حين فاجأتها طفلتها وهي تصرخ:

-"حاسبي يا مامي!"

****

(٧)

مر العام الأول في الكلية، و(علاء) يحاول التأقلم على كل من حوله. معرفته بصديقه (عصام)، التي جاءت على غفلة، كانت من أجمل الأشياء التي حدثت له وقتها. ربما كان يحتاجها بشدة ليمر بسلام في تلك المرحلة، لذا تشبث به كالطفل ما أن يرى أباه، وكان (عصام) نعم الصديق؛ فلم يتركه يومًا وكان له خير العون. يتذكر لقائهما معًا ضاحكًا. كان (عصام) يومها يمزح بخفة ظله التي أوقعته في مشكلة، جعلته بسببها يُطرَد من قِبل المحاضر. كانت أول مرة وآخر مرة بالنسبة لـ(عصام)، جذب فيها انتباه الجميع من حوله، حتى (علاء).

يومها جاءه (عصام) بالكافتيريا يسأله:

-"انت مضحكتش ليه؟"

نظر له (علاء) بازدراء:

- "أضحك على إيه؟"

وعاد لما كان يفعله. مد (عصام) يده مصافحًا إياه ومقاطعًا له:

- "(عصام).. وانت؟"

- "(علاء)".

هكذا أجابه بدون حتى أن ينظر نحوه، حين استطرد (عصام) قبل أن يهم بالمغادرة:

-"طيب يا (علاء) أنا موجود معاكو لو احتجت حاجة.. أصلي خلاص اتدبست".

لم يجبه (علاء)، وما أن أعطاه ظهره حتى بدأ (علاء) يتأمله. حين فاجأه (عصام) بالتفاته للخلف ناظرًا إليه. موقف تافه جمعهما، هكذا هي بداية بعض الصداقات؛ أفعال لا يمكن تخيل مدى تفاهتها، قد تبني علاقات إنسانية متكاملة. (علاء) في ذلك الوقت احتاج لمن يؤازره ويخفف عنه وطأة الحياة، التي هجرها فيما بعد. أصبحت أيام الكلية ممتعة وأقل صخبًا وضجرًا مما كانت عليه. ظل الصديقان معًا حتى تخرجا، ولحسن حظهما أن تم تعيينهما في ذات القسم. وعلى الرغم من ذلك، فقد جمع كلٌ منهما صفات لم تكن في الآخر؛ فبينما سلك (عصام) طريق اللين واحترام الإنسانية، كان (علاء) أكثر عداءً وعصبية مع الجميع، وكأنه يلخص حياته كلها في كلمة او لكمة. على الرغم من أن (عصام) كان

ضد طريقة (علاء)، إلا أنه ظل ينصحه بالابتعاد عن العصبية، حتى جاء اليوم الذي ظن (عصام) أن (علاء) سيتغير ما أن يتزوج، لكنه هدأ لفترة قصيرة قبل أن تعود إليه نقمته للحياة.

****

أكملت بهدوء وعلى شفتيها ابتسامة ثابتة:

ـ "شاءت الحياة أن تبتسم لي ابتسامة صفراء على مضض، تقبلتها وسرت بها مكملة طريقي. في يومٍ جاءتني إحدى زبائني تخبرني أن أخاها ذا الخامسة والأربعين يبحث عن زوجة. الرجل قضى حياته كلها في الغربة حتى نسي نفسه، ولولا ضغط العائلة عليه لما رغب بالزواج. لماذا اختارتني؟؟ لا أدري، إلا أنها ـكما أخبرتني- ارتاحت لي. في البداية رفضتُ، ولكن والدتي سألتني أن أقبل كي أرحل من هنا، هاربة من سطوة أبي على مالي. لذا قبلت زواجه، وتم عقد القران، وغادرت مسافرة إليه".

ـ "مش معقول! سافرتي من غير ما تشوفيه ولا تعرفيه!؟ إيه ضمَّنك الناس دي!!؟"

- "وقتها كنتُ كمن رُمِيَ في حفرة، وليخرج منها يجب أن يقع في حفرة أخرى. لا أنكر أنه كان جنونًا ولكن ما عساه أن يكون!؟ لم أعتقد أن الوضع قد يكون سيئًا؛ فكثيرات من يتزوجن هكذا زيجات وأسوأ".

- "مش منطقي الكلام ده".

- "ربما.. لكنه بدا لي منطقيًا وقتها".

- "طب ولما روحتي لقيتي الوضع عامل إزاي؟"

- "أحسن مما توقعته.. كان رجلاً طيبًا إلى حدٍ ما، ولكن عيوبه كانت كثيرة".

- "مستغرب من نوع الجواز ده. من كلامك باين إن أوضاعك المادية كانت تمام".

-"للأسف كانت ممتازة حتى جر أبي أخي، وأصبح الاثنان يتعاملان معي على أنني بنك متنقل، كلما أرادا مالاً في أي وقت يأتيان إليّ مطالبين به، وكأنهم أصحاب ديون".

- "وموقّفتيهمش عند حدهم ليه!؟"

-"التعامل معهم يا سيدي وحده أتى لي بالشبهة، فما بالك لو رفضت إعطائهم؟ لكانوا سببوا لي الكثير من المشاكل. وهم يعلمون نقطة ضعفي واستغلوها على

أكمل وجه. ألم أقل ’الرجل هو العدو الآخر للمرأة!؟‘ أنانية طاغية يسعى من ورائها لتدميرها، سواءً كان قريب أو غريب؛ فكلهم الآن أصبحوا سواءً ما دام الغرض إيذائك. بعض الرجال يقيدون النساء بأي قيد ليصبح لهم الحق في إيذائهن، كسر خاطرهن، أو حتى كسر جناحهن؛ فالمرأة بالنسبة لهم، ما هي إلا مكمل لحياتهم، صورة تدَّعي كونها الأصل. قليل جدًا من يعتنون بها، ويهتمون لها كإنسانة. لا أنكر أن زوجي (إيهاب) كان يدعوني كثيرًا للعمل، ولأن أحقق ذاتي؛ ففي الغرب لا يعترفون بالكسل وعدم الاجتهاد، طالما لديك حلم تسعى لتحقيقه. فكرت كثيرًا في فتح محل كوافير هناك، أضيف إليه بعض المواضيع العربية، كرسم الحناء، وبعض الخلطات العربية للجسم أو للشعر. لكن كان عليّ أولاً أن أجد رأس المال، وهنا كانت السقطة الأولى في زواجنا، أو لنعدها السقطة الثانية؛ فلقد رفض زوجي إقراضي المال، وطلب مني أن أعمل لكي أحصل عليه؛ فماله هو من اجتهد للحصول عليه، وليس لي الحق بسؤاله أن يعطيني منه. ’ألست زوجتك!؟‘، هكذا سألته. ’هنا لا شيء يدعى

(زوجتك)؛ كلا الطرفين هنا مستقل عن الأخر'، هكذا أجابني ببساطة. أتصدق.. اعتقدت يومها أنه سيطلب مني العمل لكي أجد طعامي وملبسي. وبالفعل حدث ذلك بعد ستة أشهر من زواجنا، وكانت هذه السقطة الثالثة؛ فقد أخبرني بأن جلوسي بالمنزل يكلفه الكثير، وأنه اشترط عليهم أن تكون عاملة ولكنهم أخطؤوا فهمه، فأرسلوا له من تبدد ماله".

- "إزاي كنتي بتقولي طيب وبيعاملك كده!!؟"

- "سيدي.. هناك من يرغمون زوجاتهم على معاشرة آخرين من اجل ازدهار أعمالهم، مبررين ذلك بأنهم في مجتمع حر. أرأيت كم هو طيب!؟ على الأقل لم يدفعني لما يخالف أخلاقه على حد قوله. تصور أن لهذا أخلاقًا بالأساس!!"

- "وعملتي معاه إيه!؟"

- "كما طالبني بأن أعمل لأجد من يطعمني، طالبته بأن يُطعم نفسه ويغسل ثيابه وينظف المنزل لنفسه، لذا استسلم لي، فأصبحت أعمل عنده كالخادمة مقابل ما آكله وأشربه. حياتي كلها أصبحت بقيمة طعامي وشرابي، حتى بدأت في التفكير بالعمل بأحد الصالونات

بدون علمه. فاستغللت غيابه ساعاتٍ طويلة بالعمل، وعملت بأحد الصالونات الصغيرة بالمنطقة".

- "مخفتيش لاحسن يعرف؟؟"

- "سيدي وماذا إن علم!؟ ماذا تعتقده سيفعل!؟ لا شيء. حتى إن منع عني الطعام والشراب، فأنا أعمل الآن وباستطاعتي الصرف على نفسي. وإن منعني العمل، فسأظل عبئًا عليه، أو سأكمل عملي كخادمة عنده".

- "قدرتي تتكيفي مع المجتمع هناك؟؟"

- "في البداية لم أكن أعيّ أي كلمة ينطقونها، ولكن بعد عملي بالصالون بدأت بمعرفة بعض الكلمات التي كنت أستطيع التواصل بها مع الزبائن".

نظر لساعته، ليدرك الوقت الذي مر دون أن يشعر.

****

تسمرت عيناه في السقف. لأول مره يلاحظ كم شاخ وأصبحت تغطيه التجاعيد، أو ربما تجعَّد وجهه من كثرة ما يرى ويسمع؛ فكل يوم يأتي بمفاجآته الغريبة. لم يعد البشر آدميين؛ أصبحوا وحوشًا تأكل بعضها البعض بشكلٍ مزري؛ فأقل كلمة قد تودي بحياة شخص.

أصبحت النفس البشرية أرخص من الجنيه. الناس طبقات، وكل طبقة تنضح بما في داخلها. ولكنهم يتشاركون في الخيانة والقتل. المال هدف الجميع، والجميع يزهدهم المال، بل تزهدهم الحياة.

الحياة في عينيه أصبحت ضيقة، يتذكر زوجته وهو ملقى على كنبة مكتبه ينام نصف نومة. لم يعد يجد من يحتضنه، لم يعد يجد من يدفئه. كثير من الأشياء ضاعت بسبب تفاهته. الماضي دمَّر الحاضر، والحاضر دمر المستقبل. فهل سيتركها تمضي من أجلها وطفلتهما؟ أم سيؤلمها قبل أن يسمح لها بالانسحاب منه؟ تذكر طفلته التي تجاهلها بمشاعره الباردة. لم يعد يلوم والده على ما كان يفعله؛ فها هو يفعل الشيء نفسه. لم يستطع أن يتخطى الأمر. على الرغم من أن كل ما في الحياة قابلٌ للحياة؛ فالفاكهة ما إن تجف، حتى تعود لحيويتها إن وُضِعَت بالماء. كذلك مشاعره الجافة كانت لترتوي من حب عائلته لتحيا من جديد، لو أنه تركها حرة.

تجاهل الجميع، وها هم يتجاهلونه. أصبح الوقت مهمًا للتفكير في أنفسهم. الكثير من السنوات مضت وهم يزدادون ضعفًا بسببه، بينما هو يزداد قسوة. أعاد

حساباته.. يا تُرَى ماذا قدم لهم ليتذكروه يومًا ما؟؟ الإجابة كانت صادمة: لاشيء!! إذاً لو مات لما تذكرته طفلته بشيء؛ فهي لا تراه، وإن رأته لا يراها بقلب أب. يظن أن الأب هو المسكن والمصاريف، ونسى أن الأب هو الاحتواء والحب. فلو أن ابنته نسيته لما كان من حقه أن يعاتبها، بل وجب عليه أن يعاتب نفسه أولاً على مساعدتها على نسيانه.

- "بتفكر في إيه يا صاحبي؟؟"

هكذا قاطع (عصام) شروده. ظل محدقًا بالسقف وهو يجيبه:

-"في الدنيا يا صاحبي".

- "عارف يا (علاء)؟ من أول يوم شفتك فيه وأنا بعاملك زي أخويا، وكنت بستغرب ليه مشاعر الأخوة دي مغيرتش فيك حاجة، لحد ما بدأت تتغير وتلين شوية، بس للأسف يمكن أنا أكون السبب في إنك رجعت تفقد الثقة في الحياة تاني. معلش يا صاحبي.. مكنتش عايز أسيبك في الدنيا دي لوحدك.. بس على الأقل أنا سبت فيك اللي كان مخليني أطمِّن عليك. الحياة مش قاسية كده يا (علاء) إلا على الضعفاء اللي مبيستحملوش

قسوتها.. لكن على الأقوياء بتزيدهم قوة وأمل في إن بكرة هييجي أحسن من اللي فات. ارجعلها واحتويها. بنتك ومراتك أحق بمشاعرك اللي انت خايف منها. متخافش يسيبوك زيي لأنهم هيتمسكوا بالحياة عشانك زي ما انت هتتمسك بيها".

صاح به غاضبًا:

-"وانت متمسكتش بالحياة ليه يا (عصام)!؟ سبتني لوحدي زي ما كل اللي بحبهم بيسيبوني لوحدي!!"

- "يا صاحبي دي سنة الحياة.. متضيعش اللي في إيدك عشان خايف تخسرهم. عيش واستمتع وسيب بكرة لبكرة يا صاحبي".

- "أنا تعبت خلاص.. مش لاقي حد يفهمني".

- "روح لدكتور نفسي يا (علاء)"

صاح به مذعورًا:

-"ليه!؟ شايفني مجنون!؟"

- "لا يا صاحبي.. انت عاقل بس عايز تتجنن. روح عشان تنساني ومتعذبنيش معاك. أنا جزء من حياتك يا (علاء) هيكون موجود على طول، مش محتاج تشوفني عشان تصدق".

صاح مرة أخرى بصوتٍ أعلى:

-"اسكت بقى يا (عصام) انت مش حاسس بحاجة!"

ليقاطعه صوت الباب يُفتَح، وقد بدا على العسكري الذعر:

-"فيه حاجة يا باشا!؟ أنا سامع حضرتك بتزعق".

ارتبك قليلاً قبل أن يجيبه:

- "لا أنا كنت بكلم واحد صاحبي في التليفون. معلش صوتي علي. روَّح انت يا (عبد الخالق)".

أغلق العسكري الباب وهو يضرب كفًا بكف:

-"مسكين! لسة موت الضابط (عصام) مأثر فيه".

****

(٨)

حضر (محمد) باكرًا، ولم ينتبه لوجود (علاء) إلا وهو يفتح الباب مسرعًا للداخل، حين فوجئ به نائمًا على الأريكة.

ـ "أنا آسف يا باشا مخدتش بالي".

أشار له بيده بلا اهتمام، ثم توجه مغادرًا نحو الحمام. وأشار للعسكري أن يطلب له فنجان قهوة سادة، وأن يحضر له (عزيزة) بعد قليل. غاب الضابط لدقائق، ثم عاد ليجد قهوته بدون (عزيزة). صاح بالعسكري، الذي أسرع ليحضرها. نظر لـ (محمد) بثقة:

ـ"عايزين نخلَّص القضية دي النهاردة. هو مش تقرير الطب الشرعي هيكون موجود النهاردة؟؟"

ـ "آه يا فندم دا اللي اتبلغنا بيه".

ـ "يلا خلينا نخلص.. عشان نفوق لشغلنا".

كانت كلماته تناقض شعوره الداخلي؛ فقد تمنى أن تطول المدة قليلاً. لا يعلم لماذا.. لكنه كان يشعر ببصيص من الراحة. دخلت (عزيزة) وقد بدا عليها الإجهاد الشديد، ليسألها بدون أن يبدي اهتمامًا:

- "مالك يا (عزيزة)؟؟"
- "لا شيء يا سيدي، ولكن أصبحت حياة الزنزانة أكثر رعبًا، وكأنها تصنع حياة صغيرة لها بالداخل. الجميع خائفون على حياتهم لدرجة أنهم على استعداد للقتل. الأكيد أنهم يخافون من القادم؛ فلو أنهم سلَّموا أرواحهم لازدادوا عذابًا بما فعلوا. يا سيدي أصبح القتل فعلاً كالكلمة التي تُنطق؛ سهلة للغاية عند بعضهم".
- "طب خلينا نكمل.. عشتي في أمريكا قد إيه؟؟"
- "عشت هناك ما يقارب الأربع سنوات. توفي زوجي بعدها، لذا بعت منزلنا وعدت لأكمل حياتي هنا. ولكي لا يجدني أبي اشتريت شقة أخرى بحيٍ راق، واكتفيت بالعيش هناك".
- "طب ليه رجعتي مكملتيش هناك ليه؟؟"
- "الغربة قاسية.. تزداد قسوتها وبرودتها مع الأيام. نعم أحببت هناك، ولكني أحببت هنا أكثر. خفت أن أموت كـ (إيهاب) وأدفن هناك، فأحيا غريبة وأموت غريبة".
بعض طرقات الباب كانت كافية لقطع حديثهم، قبل أن يدخل العسكري ومعه تقرير الطبيب الشرعي. أخذه (علاء) وفتحه بهدوء، وكأنه يخاف أن تَصدُقه توقعاته،

وبدأ بقراءة التقرير، الذي أفاد أن الجثة تعود لأنثى في عامها العشرين، وقد حدثت الوفاة قبل عامين.
نظر لها الضابط متعجبًا:
-"لما إنتي عارفة إنك بريئة مدافعتيش عن نفسك ليه!!؟"
- "مللت من تكراري لكلمة لم أقتله، لكنك لم تصدقني".
طأطأ رأسه للأسفل، ثم وجَّه حديثه لـ (محمد) يمليه:
-"بيَّن الطبيب الشرعي أن المجني عليها قد توفيت منذ عامين، في حين كانت (عزيزة) خارج البلاد كما أثبتت أوراق سفرها المقدمة إلينا. وعليه يتم إخلاء سبيل المذكورة، و..."
قاطعهم العسكري مره أخرى:
-"يا فندم.. المتهم دا لقيناه بيتسحب طالع العمارة، ولما راقبناه لقيناه داخل الشقة بالمفتاح اللي كان معاه، وقبضنا عليه".
وقفت (عزيزة) متفاجئة:
-"(مسعود)!"
الضابط لـ(عزيزة):
-"تعرفيه!؟"

هزت رأسها إيجابًا:

-"نعم.. إنه أخي!"

- "أخوكي جاب المفتاح منين؟؟"

- "لا أدري.. ولكني على يقين أنه أخذه من أمي رحمة الله عليها قبل وفاتها. كنت قد تركته لها في حين رغبت في الهروب من جحيمهم".

- "وليه مقولتيش دا في التحقيقات!!؟"

- "لم أكن لأتذكر، خاصةً أني اعتقدت أن الموضوع انتهى بوفاتها".

- "حلو أوي.. هاتولي الواد دا هنا".

****

تبادرت إلى ذهنه فكرة الاتصال بزوجته، لكن هاتفها كان مغلقًا. يعلم كم هي غاضبة منه، ويعلم كم سيكون صعبًا إرضائها حتى تسامحه. أخطأ وهو يعلم ذلك، لكنه ما زال ينكر خوفاً من مواجهة جانبه المظلم. أمسك بهاتفه يتصل برقم بيت والديها.

- "ألو.. إزيك يا عمي؟ ممكن أكلم (سماح)؟"

- "معلش يابني (سماح) تعبانة شوية ومش هتقدر تكلمك".

- "أوك يا عمي.. ممكن أكلم (لبنى) بنتي؟"

- "حاضر يابني".

أخذ ينادي على حفيدته، بينما يعج رأس (علاء) بالكثير من الأفكار غير المفهومة.

- "ألو.. ازيك يا (لبنى)؟"

- "أنا كويسة يا بابي".

- "مال صوتك يا حبيبتي؟؟"

- "أنا زعلانة منك يا بابي".

- "ليه!؟؟"

- "عشان زعَّلت مامي، وإيدها اتعورت".

تفاجأ من حديث ابنته، فأخذ يحادثها بهدوء حتى أخبرته بالحادثة التي أصيبت فيها والدتها في ذراعها. لم ينتظر حتى تنتهي ابنته من إكمال حديثها؛ كل ما كان يفكر به هو ما تبادر لذهنه عن تلك الليلة المظلمة، التي فقد فيها أعز صديقٍ له، والآن تتكرر الليالي لتدفعه إلى فقدان شخصٍ آخر.

في تلك الليلة كانا عائدين من الإسكندرية. ذهبا في رحلة سريعة لمدة يوم، ومع مغيب الشمس انطلقا بالسيارة حيث يقودها (علاء)، تلك الليلة كانت أسوأ ما يمكن تذكره حيث اللاذاكرة. كل ما يذكره (علاء) هو أنه كان يقود سيارته، حين انحرفت سيارة أمامه فجأة. حاول تفاديها، لكن الشاحنة خلفه لم تعطه فرصة، ليفيق بعدها بالمستشفى ورأسه تلتف حوله عصاباتٌ من الشاش، وقدمه مرفوعة أمامه وقد أثقلها الجبس.

- "أين (عصام)؟؟"

أول سؤال سأله (علاء)، وآخر سؤال تمت إجابته. الجميع مجتمعٌ حوله يحاول الاطمئنان عليه، لكن عينيه تدوران حوله باحثةً عن شيءٍ ما، عن شخصٍ ما. لكنهما كانتا تدوران وتدوران لتعودان لمحجريهما بدون إجابة.

'ربما كان في غرفة أخرى'.

هكذا تبادر إلى ذهن (علاء).

'لكن لماذا لا يطمئني أحد على أحواله؟'

وهكذا تساءل هامسًا لنفسه.

كانت (سماح) زوجته بجانبه، تقرأ له القليل من الآيات القرآنية، حين أشار لها أن تقترب.

- "متعرفيش يا (سماح) (عصام) عامل إيه؟"

تلجلجت (سماح) قليلاً، قبل أن تجيبه وكأنها في حيرة مما يجب إخباره به.

- "(عصام) بخير، وبالغرفة اللي جنبك ".

- "جراله إيه ؟؟"

- "كسور في أجزاء مختلفة بالجسم".

زفر بهدوء، وكأنه أخرج حملاً ثقيلاً من داخله، ثم أعاد رأسه للخلف مبتسمًا، هامسًا:

-"ده أنا هموِّته لما أشوفه".

****

- "بص يابني.. بنتنا تعبت، وإحنا مش عايزين نبهدلها معاك. كفاية.. البنت تعبت بجد".

هكذا بادره والدها وهو ينظر إليه بثقة. صمت قليلاً ثم سأله:

"هي دي رغبتها؟؟"

- "أيوة يابني.. إحنا عمرنا ما نغصبها على حاجة هي مش عايزاها".
- "ممكن يا فندم أتكلم معاها يمكن تغير رأيها؟ دا بيتي اللي هيتخرب.. أرجوك ساعدني".
- "مش عارف يا بني.. هشوفهالك لو هترضى.. مع إني معتـ...".
قاطعتهم بغضب:
- "مش عايزة أسمع منك حاجة! اللي بابا قالك عليه هو اللي هيمشي!"
- "طب ممكن تسمعيني؟"
- "وقت السمع خلاص فات. دا وقت الفعل".
- "طب عشان خاطر بنتنا اسمعيني. يرضيكي تعيش بعيد عن أبوها!؟"
- "يعني انت كان همك!؟ بنتك دي كانت آخر واحدة اهتميت بيها!"
دخلت ابنتهم ركضًا وهي تبكي:
-"اسمعيه يا مامي عشان خاطري".
ما أن رآها (علاء)، حتى تغير فجأة وكأن شيئًا قد تحطم بداخله؛ فبالرغم من عدم اهتمامه بها كثيرًا، إلا أن

دموعها كافية لتخبره كم هي تحبه. سقط على ركبتيه واحتضنها وأخذ يبكي، مما فاجأ زوجته ووالدها، وأخاف ابنته فأخذت تبكي هي أيضًا. لأول مرة ترى (علاء) يعبر عن مشاعره. لأول مرة يتساقط أمامها كورقة خريفية قد لفظت الحياة. تلك الدموع التي تساقطت ثمينة. ثمينة لـ(علاء). كان يخبئها في بقعة سرية لم يصل لها أحد من قبل. لم تره يبكي من قبل، حتى عند موت (عصام) بذلك الحادث الذي أودى بحياته، بقي صامتًا لا يحدث أحدًا. كانوا يسمعونه يتحدث لنفسه، حتى خافوا أن يكون قد جن. ولكنها فترة حتى عاد لطبيعته، وعاد لعمله. كان المشهد قاسيًا لها، فما كان منها إلا أنها احتضنتهما معًا وأخذت تبكي معهما. ترقرق قلب والدها لحالهم، فما كان منه إلا أن قال لها:

-"روحي لمي هدومك وروَّحي على بيت جوزك. وانت يابني.. آخر مرة أشوفها عندي".

ثم ربت على كتفه:

-"خلي بالك من عيلتك يا ابني. هما دلوقتي ليك كل حاجة بعد موت والدك ووالدتك".

مسح (علاء) دموعه بكمه. دموعه التي لا يعلم من أي جبلٍ بقلبه انفجرت. ثم قال:

-"حاضر يا عمي.. دول في عينيا".

****

غادرت (عزيزة) القسم، بينما اعترف أخوها بقتله لفتاة أحبها؛ لأنها أخبرته أنها ستتزوج بآخر جاهز، لذا قام باستدراجها إلى المنزل وقتلها هناك، ولم يستطع الخروج بالجثة لذا اشترى برميلاً ووضع الجثة به، على أمل أن يُخرجها يومًا ما، لكن غياب أخته كان يشعره بالأمان لعدم كشف أمره، لذا نسى الموضوع. حتى سمع الجيران بمحض الصدفة صوت سارق بالمنزل واتصلوا بالشرطة، التي وجدت البرميل والجثة.

****

(٩)

أخذت تتذكر، وهي تبتسم للحظ الذي ساعدها مرتين: مرة عندما انتقمت من خائنها وعشيقته، والمرة الأخرى حين انتقمت من زوجها. كيد النساء قد تظهر فوائده حين تشتعل الأنثى بالغضب والحقد، فتتحول من امرأة لا قدرة لها إلى أخرى على قدرة بأن تُغرقك حيًا. الضعف ينتهي بانتهاء مشاعرها الوردية؛ فما إن تصبغ تلك المشاعر باللون الأسود، لا تعود أنثى كما كان يجب.
أول خطوة كان عليها فعلها هي الانتقام من حبيبها وعشيقته، لكنه كان رجلاً فطنًا، استطاع أن يخدعها بكل بساطة، فكيف لها أن تخدعه بذات الصفة؟
ولأنه أول من قدم لها فكرة الانتقام على طبقٍ من أطباق جهنم، كان يستحق منها الكثير من التفكير والتخطيط السليم؛ فقد وضعت نصب عينيها إعادة ما تملكه، والتخلص مما لم تملكه قط.
أغلقت الهاتف ليلتها بعد أن انتهت من الحديث مع (برعي)، شاب تعرفه من المدافن، والذي قبلَ أن يساعدها على أن تعطيه القليل من المال، الذي يستطيع

به إكمال تعليمه. كانت تعرف نقطة ضعف كل من تعرفهم، وعلى رأسهم ذلك الحبيب الغادر. اتصل بها (برعي) اليوم التالي يبشرها بأن الحيلة قد انطلت عليه، وأنه سيقوم بإعداد أوراقه حتى يقدمها له. ابتسمت نصف ابتسامة، ولعبت ببعض خصلات شعرها الملتوية، وأخبرته بأن يعد لها المكان الذي اتفقا عليه، وما إن يكمل ما تم الاتفاق عليه، سيحصل على ما وعدته به.

****

- "عزيزي الشاي جاهز.. وهذه بعض الأوراق التي أحضرتها السكرتيرة كالعادة.. تطلب منك توقيع كافة الأوراق الليلة".

كانت تعلم أنه لا يقرأ ما تحضره السكرتيرة، ففي الغالب تكون هذه الأوراق معروفة له لكن لم يجد وقت لتوقيعها.

- "ماشي.. اخرجي واقفلي الباب وراكي".

- "إن احتجت لشيء فأنا بالخارج".

لم يجبها، ولم يعرها حتى اهتمام، اكتفى بوضع الملف أمامه وبدأ يوقع أوراقه في صمت. خرجت من غرفة

مكتبه، وكفاها يحتضنان بعضهما في قلق. أخذت الممر جيئة وذهابًا، رغبت لو أنها بقيت معه حتى ينتهي. لكنه لم يكن ليرغب بها في مكتبه، فلو رغب بها يومًا فسيكون لعملٍ يطلبه منها.

مضت ساعة منذ أن قدمت له الشاي والأوراق، كان لابد لها بعدها أن ترى ما يحدث. فتحت الباب بهدوء لتراه قد انكبّ على أوراقه كالميت. اقتربت منه بهدوء تترقبه. حين شعرت بأنفاسه تلفح يديها المتعرقتين، المرتعدتين من الخوف. لو أنه مات لأخافها؛ فهو يخيفها حيًا وميتًا. حرَّكته بهدوء، وقد بدا أن المخدر قد أتى بمفعوله. أخذت تُقلِّب الأوراق بحثًا، حتى وجدت ما كانت تبحث عنه. احتضنتها بشغف وقبَّلتها، ثم تسللت إلى خارج الغرفة مغلقةً الباب.

****

- "الجثث في العربية دلوقتي.. أعمل فيهم إيه؟؟"
- "أي جثث أيها الغبي!!؟ هل قمت بقتلهما!!؟"
- "لا.. بس خدرتهم زي ما طلبتي".
- "إذًا اذهب لإحضارهما بسرعة إلى أسفل".

نظرت لوالدتها هازةً رأسها:

-"جاهزة يا أمي؟"

هزت الأم رأسها بهدوء، وقد بدا الذعر على قسمات وجهها. نزل (برعي) بجسده، ثم رماه أرضًا، ثم قام بسكب الماء فوق رأسه حتى أفاق.

- "أهلاً وسهلاً بحبيب العمر! أرى على ملامحك نظرة تعجب.. يا ترى من ماذا؟ ألا تعرفني!؟"

- "أنا فين؟؟ وانتي عايزة مني إيه؟؟ وفين (سمر)؟؟"

- "انت في بيتك الثاني، أو يمكنك تسميته (قبرك الأول). بالنسبة لـ (سمر) لم أجد فائدة من قتلها بيدي، ففكرت بأن تقتلها أنت".

- "قصدك إيه!؟"

أعطته هاتفه، وأمرته أن يتصل بها ليخبرها بأنه لم يعد يرغب بها، وأنها كانت مجرد مرحلة في حياته، وأنه اختار أن يكمل وحده. كان عاجزًا أمامها؛ فإما أن تنفذ ما يقوله أو يكون مصيره الموت. أمسك الهاتف ليتصل بها، حين بادرته:

"أرجوك كن حقيرًا وأنت تحادثها".

ما إن انتهت المكالمة، حتى رمت بالهاتف تحت قدميها تحطمه.

- "ليه عملتي كده!؟ استفدتي إيه!؟"

- "استفدت كثيرًا؛ فالرصاصة لا تؤلم يا عزيزي كما تؤلم الكلمات التي تخرج من نذلٍ مثلك. الآن ستموت هي باليوم ألف مرة وهذا كافٍ بالنسبة لي. أما بالنسبة لك، فلم أعد أريد منك شيئًا؛ فلقد عاد لي المحل مرة أخرى، وأنت خرجت كما يقولون (من المولد بلا حمص)".

- "رجعلك إزاي!؟ أنا بايعه لواحد اسمه (حسن)، ومش شايف على وشك شنب يدل على إنك (حسن)".

- "(حسن) يتبعني.. صديق عزيز قدَّر العشرة، ووافق على مساعدتي. أتعلم أصعب شيء في الموضوع؟ جعلك تصدق بأن هناك من يريدك أن تسافر لتعمل لديه بعقد عمل سارٍ لخمس سنوات. هل يجد كل وضيع عقد عمل للخارج بسهولة ربما لو كان نصابًا مثلك؟ آه شيء آخر.. تجهيز المال المزيف الذي أخذته ثمنًا للمحل كان صعبًا أيضًا. أتصدق أنني أتعب كل هذا التعب من أجلك يا حبيبي؟"

- "مزيف إزاي!؟ يعني إيه!؟ أنا اضَّحك عليا!؟"
- "داين تدان".
- "طب انتي عايزة مني إيه تاني!؟ مش خدتي محلك خلاص؟ سيبيني بقى أشوف عيشي في حتة تانية. كفاية إنك خليتيني أجرح واحدة ملهاش ذنب".
- "جميعنا بلا ذنب يا عزيزي. جميعنا بلا ذنوب حتى أنت وهي.. أليس كذلك؟ أنا فقط من أحمل الذنوب.. أنا فقط من أستطيع التخلص من تلك الذنوب".
التفت نحو والدتها يستعطفها، حتى أنها كادت تطلب منها الصفح عنه، فما كان منها إلا أن طلبت من والدتها أن تخرج حتى تنتهي هي من أعمالها المعلقة. ما إن خرجت والدتها حتى استدارات نحوه مبتسمة:
"نسيت إخبارك بأن أسعار المسدسات أصبحت غالية جدًا.. ولكن الغالي يرخص لك يا عزيزي".

****

استيقظ في صباح اليوم التالي وهو يشعر بصداعٍ في رأسه، وكأن أحدهم أمسك برأسه وضربها في الجدار. خرج من مكتبه مسرعًا نحو غرفة نومه، ارتدى ملابسه وهو يصيح في (عزيزة) حتى أيقظها. كان غاضبًا؛

فوقت الاجتماع قد اقترب وهو ما زال نائمًا. لماذا لم توقظه كعادتها!؟ لماذا لم تحضِّر له الفطور ككل صباح!؟ نظرت له هذه المرة بهدوءٍ ولم تجبه، وهو لم يملك من الوقت ما يستطيع به أن ينفِّث عن غضبه فيها. ما إن غادر حتى تمددت على فراشها، تداعب وسادتها في سعادة قائلة:

"أخيرًا انتهى الكابوس. لن ينام عليكِ أي رجل مرة أخرى.. لن تتنقلي بين أيدي الرجال من جديد.. أنتِ حرة نفسك.. أنتِ ملكي الآن. حتى هو لن يستطيع أن يمسسكِ من جديد"

تدلت من فراشها، وتناولت فطورها، ثم ذهبت للحديقة الخلفية تكمل ما كانت تفعله ليلة الأمس. مرت ساعات ذلك اليوم بسرعة، وكأنها تستعجل ذات النهاية. عاد زوجها من العمل غاضبًا من تأخره، ليجدها ترتدي ملابس أنيقة هدَّأت من غضبه قليلاً. لكن مع كل صفحات المكياج التي طبعت على وجهها، ومع لفة الشعر المميزة والمثيرة، وجد أنه لابد له من أن لا يفقد سيطرته، لذا اقترب منها يجذبها من شعرها:

-"جيد أنكِ ارتديتِ هذه الملابس المغرية؛ فالسيد (سكوت) سيعجب بها كثيرًا لو ارتديتها له؛ فهو سيصل غدًا ليكمل سهرته معكِ.. كما علّمتك".

نظرت له بوداعة، تلمست شفتيه بنعومة:

-"نعم أعرف ما عليّ فعله؛ فأنت خير معلم. لكن عزيزي ربما عليك تناول شراب دافئ لتهدأ".

نظر إليها كمن استعاد قوته، ثم جلس على الأريكة أمام التلفاز، وانتظر حتى أتته بفنجانه، رشف منه رشفة بينما هي تترقبه وتداعب شعره. ثوانٍ حتى أمرها بتحضير حمامه، تركته واتجهت للحمام تجهزه، حين سمعته يصرخ:

-"عزيززة!!"

****

خرجت (عزيزة) من غرفة الدفن، وأمرت (برعي) بإغلاقها. نظر إليها قليلاً، وكأنه يسألها عن الرجل بداخلها. أشهرت المسدس بوجهه:

-"ستلقى نفس مصيره إن علمت أنك نطقت بكلمة".

أخذ الشاب في صمت بإغلاق الفتحة، وإعادة ردم القبر.
ثم نظرت لوالدتها مبتسمة:

-"أغلقي باب المدفن يا أمي وعودي للمنزل.. هذه ثلاثمائة جنيه. خبِّئيها ولا تعطي قرشًا لأبي".

ثم التفت نحو (برعي):

-"أما أنت يا (برعي) فهاك ما اتفقنا عليه. عد لمنزلك وكأن شيئًا لم يكن.. أتفهم؟"

هز الشاب رأسه، وأخذ يعد المال بسعادة أنسته ما حدث قبل قليل، بينما تسمرت عينا والدتها نحو القبر.

****

ركضت نحوه مهرولة، لتراه يتأرجح يمينًا ويسارًا وهو ممسك ببطنه.

- "هموت يا (عزيزة) الحقيني!"

مالت برأسها يسارًا تتأمله بهدوء:

-"الموت لك رحمة".

- "يعني إيه!؟ إنتي عملتي فيا إيه!؟"

- "قليل من السم قد يقوم بعمل الكثير. صحيح أن الإنسان ضعيف".

- "الحقيني يا (عزيزة).. مستعد أديكي كل فلوسي".
رفعت نظرها للأعلى وكأنها تفكر في عرضه:
"لم تعد تملك شيئاً لتهبني إياه، فبالأمس وقَّعت لي على ورقة تتنازل فيها عن كل أملاكك لي. أما بالنسبة لجواز سفري الذي تخفيه، فبعد موتك سأذهب لاستخراج جواز سفر آخر".
- "حقيرة! مش هتعرفي تعملي حاجة لما يكتشفوا إنك قتلتيني".
- "أتصدق أن ما أرغمتني على فعله جاء بنتائج جيدة؛ فلقد تعرفت على رجل ساعدني على الحصول على سم لا يتم اكتشافه عند التشريح أتصدق هذا؟ ثم أنه مَن مِن عائلتك قد يطلب ذلك!؟ الجميع يعرف أنك مريض بالقلب، كما أنني سأعطيهم القليل من الإرث الذي يُسكت أفواههم التي لا تقل قذارة عنك".
تملكه الألم الذي أفناه في لحظات، دوَّت بعدها صرخة مدوية تدَّعي الحزن.
هل كانا يستحقان أن تتخلى عن حكمتها من أجل واقعها الأليم؟ فالأول خائن والثاني منعدم الرجولة؛ فمن يفرض على زوجته العمل السافر، يستحق بكل بساطة أن يُقتل

بطريقة سافرة. الآن فقط تستطيع أن تعيش بارتياح؛ لا أحد يسألها، ولا أحد يعلم طريقها بعد أن قررت بيع شقتها والسفر خارج البلاد. قررت أن تقضي أيامها حيث ستتنفس الصعداء. الحياة لا تكون عادلة أحيانًا، ولكنها لا تصبح أكثر عدلاً بالانتقام؛ فالحياة كالدائرة، التي تمر بأصحابها وهي تمضي على نفس أماكن من تركوهم هناك.

*****

(١٠)

ارتدت قبعتها ونظارتها الشمسية، وأمسكت بجواز سفرها واتجهت حيث الكاونتر. نظر الرجل لجواز سفرها ولعقب تذكرتها، أخذ ينظر إليها ليتأكد من هويتها حتى يسمح لها بدخول قاعه الانتظار. بينما هي تفكر في أنها أخيرًا سترى عالمًا آخر غير الذي عهدته، ستبدأ من الصفر من حيث اللاشيء.. من حيث سيبدأ كل شيء.

انتظرت قليلاً، كاد ضابط الجوازات أن يضع ختمه، معلناً أنها أصبحت خارج البلاد. حين استوقفها صوت تكاد تميزه:

-"(عزيزة)".

التفتت للخلف، لترى الضابط (علاء) يقف هناك ينظر إليها، لا يفصل بينهما إلا بضع كراسي وبضع خطوات.

- "الضابط (علاء)!! هل جئت مودعًا؟؟"

- "إنتي عارفة أنا هنا ليه!؟ كل شيء انكشف خلاص".

ـ "انكشف!! ماذا تراه قد انكشف لك يا سيد (علاء)؟ ألم يتم تبرئتي مما اتهمت به!؟ أم أن هناك شيئًا آخر لا أعرفه!؟"

ـ "(برعي) اعترف يا عزيزة".

رفعت حاجبًا في تعجب، وكأن هذا الاسم لم يمثل لها تاريخًا:

ـ"من (برعي)!؟ أهذه حيلة أخرى لاتهامي بما لم أقم به!؟"

ـ "أنا عندي شاهدين على جريمة قتلك لـ(مدحت عبد الصبور) حبيبك".

ـ "ويا ترى من هو الشاهد الآخر؟؟"

ـ "أخوكي".

أدهشها وجود اسم أخيها في الموضوع؛ فكيف له أن يعلم بما لم يعرفه أحد غير والدتها وبرعي!؟

ـ "كاذب!"

ـ "غريبة إنك كدِّبتيه ومكذبتيش (برعي).. رغم إن الاتنين شهدوا عليكي بقتلك لـ(مدحت)".

ـ "أخي يحاول ابتزازي، وهذه قصة مدبرة من كليهما".

ـ "طب والجثة اللي لقيناها في القبر، برضه كدب؟"

- "أنت قلتها.. قبر.. أي أنه مليء بالجثث".
أخرج ورقة من جيبه، وهزها أمامها:
"والتقرير دا كمان كدب؟؟"
- "ماذا تريد يا حضرة الضابط؟؟"
- "أنا مش عايز منك حاجة.. القانون هو اللي عايز".
اقترب منها، شاهرًا أصفاده في وجهها. أمسك بيديها واضعًا الأصفاد فيهما، بينما هي تتمتم بكلماتٍ، تقسم فيها بأنها بريئة.
- "مش المرة دي يا عزيزة".
هكذا أجابها وهو يقتادها إلى خارج المطار، حيث أودعها سيارة الشرطة.

****

- "طب وانتو عرفتوا إزاي إنها الجانية؟؟ مش يمكن أخوها بيتبلّى عليها؟؟"
هكذا بادرت (سماح) زوجها بسؤالها. حرك (علاء) ملعقته في الطعام ثم أجابها:
-"الموضوع مش زي ما إنتي فاكرة. أولاً تقرير الطبيب الشرعي أثبت إن الجثة فعلاً بتاعت (مدحت)، وكمان

أخوها أهبل كان فاكر إنه هيبتزها فعلاً، لولا إنها هربت منه لما اتجوزت وسافرت، ومعرفش برجوعها إلا في القسم. طبعًا الإنسان في أوقات زي دي عارف إنه هيموت فيها، بيحب ينتقم من كل واحد كأنه بينتقم لنفسه حتى لو مش أذوه.. مش أخته بس اللي اعترف عليها؛ دا كمان أصحابه من قطيع الزفت اللي بيشربوه".

- "طب وهو عرف إزاي موضوع (مدحت)؟"

- "مشي ورا أمه.. أصله عارف إنها بتقابل أخته وبتديها فلوس. الليلة دي مشي وراهم وشاف كل حاجة، ولما ما مقدرش يوصلها، ابتز والدته اللي ماتت بحسرتها".

- "صحيح اللي يعيش ياما يشوف.. عمري ما شوفت كده حقارة.. يبتز أمه!!"

- "يا حبيبتي.. العالم من تحت غير العالم من فوق.. شكلين مختلفين خالص.. مفيهمش شبه من بعض غير في الجريمة. النفس البشرية دي في جموحها آلة قتل محدش يقدر يوقفها.. بس الغريب لما تلاقي حد فاهم إن أي حاجة بيعملها ملهاش نهاية، أو إن الحلقة دايمًا

مقفولة. لازم يكون فيه سكة دايمًا نعدي منها حلقة تانية، لحد ما تكتمل السلسلة".

إن لم تُوجِد الحياة عقابًا لكل مخطئ، فسيصبح العالم كالغاب بلا قانون. الضعفاء سيأكلون بعضهم جوعًا عند الغذاء، ليُوضعوا على سُفر الأقوياء على العشاء.

تمت

صدر من هذه السلسلة:

١_ حقيقة حب		رباب فؤاد

٢_ ذات الوشاح الأخضر		رانيا حجاج

٣_ نصف ملاك		رباب فؤاد

٤_ حكاية سرية		عبير قائد

٥_ حارسة القصر		ميرفت البلتاجي

عزيزة مونرو	عدد خاص	رانيا حجاج